# الفصل الرابع

# تجديد الهوية التاريخية

# للشعوب «العربية»

- التصالح مع الميراث القبلاسلامي
- المانوية .. نموذج لتاريخنا المسروق
- مقترحات لتوحيد تاريخنا الممزق
- ترجمة التراث العربي الى العربية
- ملاحق معلوماتية عن العربية والسامية وأصول شعوب المنطقة وتاريخ التعريب

## الميراث القبلاسلامي ومستوجبات التصالح معه

إن معظم خطوات الإصلاح التي قامت بها النهضة الأوروبية للتخلص من ظلامية العصور الوسطى هي خطوة تصالح الفكر المسيحي الأوروبي المهيمن مع الميراث قبل المسيحي (الاغريقي والروماني) الذي كان مندثراً خلال العصور الوسطى، لولا دور العرب في نقله والحفاظ عليه. وصل الأمر الآن بالأوروبيين أنه حتى المؤمن الكاهن المسيحي صار يبدو له طبيعياً الشعور بالانتماء للتراث الاغريقي والروماني والسلتي والجرماني، وبنفس الوقت الانتماء للتراث المسيحي بحيث أن الأوروبي مهما كان متديناً أو علمانياً تراه يقرأ ويدرس الانجيل وكتب القديسين مع كتب الإغريق والرومان وباقي التراث المحلي الأوروبي.

أما نحن لسوء حظنا لم نشاهد من أوربا والحداثة غير جانبها التقني التجديدي والمستقبلي. انزلقنا في وهم الفصام بين التراث والحداثة. فعلنا بالضبط عكس الأوروبيين، فشلنا تماماً في توحيد أجزاء تاريخنا وماضينا وتراثنا ولم نخلق حداثتنا الخاصة والأصيلة والمستفيدة من حداثة أوربا. قمنا بتشتيت ماضينا الى تواريخ وميراثات متعددة ومتناقضة: إسلامية وجاهلية وقومية وقطرية تعصمنا في رؤية التاريخ والتراث حتى استحالت تياراتنا الفكرية والسياسية في داخل البلد الواحد أشبه بشعوب مختلفة الأصول والأوطان لها تواريخها وتراثها وتقاليدها. إنها تتناقض حتى بالمنطق والجغرافيا واللغة والفنون والآداب وتقاليد المأكل والمشرب والملبس وجميع تفاصيل الحياة :

- ❖ التيار القومي والتيار الديني تبنّيا التاريخ العربي الاسلامي مع بعض التنوعات في تقييم الأحداث والمعاني الدينية واختلاف الموقف من مسألة التحديث. ويتفق التياران على اعتبار التاريخ الوحيد الذي يستحق التقديس والانتماء هو التاريخ العربي الاسلامي المنبثق بعد القرن السابع الميلادي. وأن التاريخ السابق ثانوي وهش التأثير لأنه «جاهلي» بالنسبة للاسلاميين، وقطري وغير وحدوي وغير عربي بالنسبة للقوميين.
- ❖ التيار الليبرالي والتيار اليساري اتفقا على تجاهل الماضي العربي الاسلامي باسم عالمية الحداثة وضد التعصب القومي والتفرقة الدينية. اعتقدا برؤية للوجود تعتمد المنطق الغربي (ماركسي أو ليبرالي) بالتأكيد على رؤية الحاضر وحده من اجل التجديد المستقبلي الاشتراكي أو الليبرالي.

❖ بين هذه التيارات الرئيسية، هناك ما سمي بالتيارات القطرية التي رفضت التاريخ العربي الاسلامي وتبنت تاريخ ماقبلاسلامي «الوطني»: الفرعونية المصرية والآشورية العراقية والفينيقية اللبنانية والسامية القومية السورية، وصولاً الى القرطاجية والبربرية المغاربية.

في هذا السياق يمكن اعتبار الرؤية الصهيونية النموذج الأكثر تطرفاً في استثمار هذه الانفصامية العربية. لقد قطعت الصهيونية تاريخ فلسطين وألغت الحقبة ما قبل اليهودية ثم الحقب التالية: المسيحية الآرامية، والاسلامية العربية باعتبارها تواريخ عابرة وغزوات أجنبية، وأن الحقبة اليهودية السالفة هي الديمومة الوحيدة لتاريخ فلسطين!

إن تخلخل القواسم التاريخية المشتركة بين تياراتنا العقلية المتنوعة أدى باستمرار الى احتدام التوتر الاجتماعي السياسي وهيمنة العنف وهوس التدمير الذاتي بسبب مسخ شخصية الفرد والمجتمع وتمزق الهوية الوطنية والروحية. يبدو أن الشعوب كالأفراد، الانفصام في رؤية الماضي والتاريخ يؤدي دوماً الى انفصام في الروح والعقل. الانسان السوي هو الانسان العارف والمعترف بتاريخه وماضيه والقادر على خلق الانسجام مع ذاته الموروثة بمحاسنها ومساوئها.

إن سر جبروت أوربا يكمن في قوة ثقتها بذاتها التاريخية وبالتالي انسجامها العالي مع حاضرها. جميع تيارات أوربا المتصارعة حداثية ومحافظة، علمانية ودينية، قطرية ووحدوية، يسارية ويمينية، قد اتفقت على رؤية شمولية مشتركة وموحدة ومنسجمة إزاء تاريخها وتراثها وتقاليدها، مع حرية الاختلاف في تفاصيل الأحداث وتقييمها سلباً أو ايجاباً.

## ديمومة الأرض وديمومة التاريخ

يحكى أن الاسكندر المقدوني عندما احتل بلاد النهرين ودخل بابل (326 ق.م)، أعجبته خصوبة الأرض وعطاء النهرين وفخامة الحضارة، لكنه مقت سكان البلاد وميلهم الى التمرد. سأل مستشاره الحكيم عن رأيه بجلب عوائل جنوده الاغريق وتوطينهم بلاد النهرين ليسهل حكمها. لكن الحكيم اعترض قائلاً: «لو جلبت اغريق ووطنتهم هنا لا محال بعد أعوام سيتطبعون بمناخ البلاد وأرضها ونهريها وثمارها وسيمتزجون بناسها وتاريخها ويكتسبون عاداتها، ولا محال في النهاية سيتشابهون مع سكان البلاد بطباعهم وعقليتهم ويفقدون أصلهم الاغريقي». وهذه الحكاية لها شواهد تاريخية مماثلة تثبت صحة منطقها. فالاغريق في بلاد الشام صاروا سوريين واستقلوا عن بلاد الاغريق وكونوا السلالة السلوقية (بين 300 ـ

30ق.م)، وفي مصر حدث نفس الشيء مع سلالة البطالسة. ومن تاريخنا العربي يمكن أن نأخذ مثال بلاد الأندلس التي استقلت عن باقي العالم العربي ـ الاسلامي وكونت حضارتها العربية ذات الخصوصية والاستقلالية الأندلسية (الاسبانية). يمكن ايراد أمثلة كثيرة عن ديمومة الخصوصيات التاريخية لكل بلد ومنطقة جيوسياسية مهما تنوعت واختلفت الحضارات والشعوب التي تتوالى على حكمها.

وبهذا المعنى إن القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة حاملة لواء العروبة والاسلام قد فقدت خصوصيتها العرقية وبنيتها القبائلية ودخلت في تاريخ وتراث ودماء شعوب الأوطان التي حلت بها.

السؤال المهم الذي يطرح نفسه في هذا السياق: لماذا هناك بلدان فتحها العرب اعتنقت الاسلام ولكنها لم تتعرب، مثل ايران والسند وأفغانستان وأواسط آسيا التركستانية؛ بينما هنالك شعوب اعتنقت الاسلام وتعربت وهي الشعوب العربية الحالية، بل هناك بعض المجموعات قد قبلت التعرب دون أن تدخل الاسلام مثل الاقباط الحاليين وبعض الطوائف المسيحية وغير المسيحية في المشرق العربي (العراق وبلدان الشام)؟

لماذا ايران بقيت ايرانية بينما العراق صار عربياً؟ هل هذا يعني لأن ايران كانت وظلت مسكونة بالعنصر الايراني، بينما العراق: إما أنه كان أرض قاحلة خالية من البشر (التاريخ يقول العكس) وقد عمرها العرب، وإما أنها كانت مثل ايران معمرة بالملايين من الرافديين أحفاد السومرين والبابليين والآشوريين مع جاليات عديدة يهودية وفارسية واغريقية وحورية وغيرها، ولكن العرب بقدرة قادر أبادوا بدنياً جميع هؤلاء السكان وحلّوا محلهم!! هل من المعقول أن تكون الأقليات المسيحية السريانية القاطنة حالياً في شمال العراق (نينوى) هي كل ما تبقى أحياء من تلك الملايين من العراقيين القدماء؟ وهل هذا يعني أن جميع الناطقين بالعربية في العراق ينتمون الى العنصر العربي وهم فعلاً منحدرون من القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة؟

التاريخ يخبرنا أن القبائل العربية كانت أقلية فعالة ومهيمنة سياسياً وثقافياً ودينياً تمكنت خلال قرون طويلة أن تصهر في داخلها الأغلبية الرافدية وعربتها من خلال التزاوج والاسلام واللغة العربية. في ايران حدث العكس أن الأقلية العربية اضطرت الى الذوبان ثقافياً وبدنياً في العنصر الايراني رغم نجاحها في فرض الاسلام وجزء من التأثير الثقافي واللغوي العربي، وقد حدث نفس الشيء مع الشعوب الآرية والتركستانية. يمكن تحديد العوامل التالية التي أدت الى التعريب:

**أولاً : الوحدة الجغرافية :**

إن السبب الأول الذي سهل عملية تعريب البلدان العربية الحالية هو التقارب العقلي والبشري بين القبائل العربية وسكان هذه البلدان. الناظر لتاريخ المنطقة يكتشف أن هذه الأرض الشاسعة التي يتكون منها العالم العربي الحالي كانت متصلة ببعضها منذ القدم: من خلال ساحل البحر المتوسط المنفصل عن أوربا بجبال طوروس شمال سوريا والممتد الى مصر وليبيا وتونس حتى جبال الأطلس في الغرب. يضاف الى السواحل أيضاً الصحراء الممتدة من جنوب الجزيرة العربية مروراً ببادية الشام وسيناء حتى الصحراء الكبرى في شمال افريقيا. على امتداد هذه السواحل والصحارى ظلت شعوب المنطقة وقبائلها وتجارها وغزاتها يتنقلون ويتمازجون ويؤثرون ببعضهم بعضاً منذ فجر التاريخ. ليس صدفة أن جميع المؤرخين اضطروا للاتفاق منذ عدة أعوام على الاعتراف بالوحدة اللغوية بين من سمّوا بالشعوب السامية والشعوب الحامية (المصرية البربرية النوبية)، وأطلقوا على لغاتهم تسمية العائلة «الإفريقية ـ الآسيوية». بل زاد الآن أتباع الفرضية القائلة بأن الجماعات السامية قد قدمت من شمال افريقيا عبر مصر، بعد عملية التصحر التي حدثت في المنطقة (بحدود 6000 ق.م)، والتي سبقت التصحر الذي حدث في المشرق والجزيرة العربية. ظلت الهجرات والامتزاجات مستمرة خصوصاً من القسم الآسيوي الى القسم الافريقي، منها هجرات الشاميين المستمرة الى مصر، ومنهم الفينيقيون الى تونس وشمال افريقيا. ان مراحل التقارب والتوحد بين شعوب المنطقة وصلت الى نضجها بانبثاق المسيحية التي نجحت تماماً بتحقيق الوحدة الدينية الروحية بين شعوب المنطقة من اليمن حتى المغرب. لكن هذه المسيحية تأخرت عن تحقيق الوحدة السياسية الثقافية بسبب تبني الامبراطورية الرومانية ثم البيزنطية لهذا الدين وبالتالي منعهم لأن يكون عاملاً للثورة السياسية. ولقد جاء الاسلام والتعريب في هذا الوقت بالذات ليلبي الضرورة التي تأخرت عنها المسيحية. على هذا الأساس يمكننا الافتراض انه لو لم تنبثق الموجة العربية الاسلامية وتوحد المنطقة ثقافياً وسياسياً، لكان من المحتم ان تنبثق موجة غيرها تقوم بنفس عملية التوحيد، ربما الأقباط، أو البربر، أو السريان.

**ثانياً : التنظيم القبائلي :**

بدأ سكان المشرق بالتحالف والموالاة مع القبائل العربية المهيمنة من خلال تقليد الحلف والموالاة المعروف لدى العرب والساميين. وهذا يعني حمل أسماء العشائر المهيمنة لضمان حمايتها بعد الدخول في الدين الاسلامي.

لقد اطلق العرب تسمية «مولى ـ موالي» على السكان الأصليين الذين دخلوا الاسلام وتعربوا. فيقال عن «فلان» انه من «موالي بني تغلب» مثلاً، ولن تزول صفة «مولى» عن الشخص والجماعة إلا بعد بضعة أجيال، ليصبح بعدها تميمياً أو تنوخياً أو قريشياً، الخ، وينسى أنه كان مشرقياً آرامياً أو عبرياً أو تركمانياً أو رومانياً أو اغريقياً أو كردياً ثم أصبح عربياً بواسطة الموالاة والتحالف.

عندما نقرأ تاريخ الحضارة العربية في دمشق وبغداد نكتشف أن معظم شخصيات «العرب» هم من «الموالي» مثل موسى بن نصير والحسن البصري وأبو نواس والجاحظ والمتنبي وغيلان الدمشقي ومقاتل بن حيان النبطي، وغيرهم وغيرهم. هؤلاء بالحقيقة من أهل العراق وسورية الذين انتمت عشائرهم وقراهم بالموالاة الى إحدى القبائل العربية. بل حتى الأشخاص الذين يحملون ألقاباً عربية مثل التميمي والقريشي وغيرها، هناك احتمال كبير أن يكون أصلهم من الموالي (أي السكان الأصليين) الذين حملوا لقباً عربياً لمجرد تمشية الأمور، خصوصاً وأن حمل الألقاب في تلك الأزمان أمر سهل لا يقتضي أية وثائق أو إثباتات، وهناك حكايات كثيرة تسرد مثل هذه الحالات. يبدو أن الكثير من السكان الأصليين الذين لم يدخلوا في موالاة إحدى القبائل العربية، التجأوا الى حمل ألقاب غير قبائلية، بل نسبة الى المدينة أو المهنة أو الصفة المعروفة، مثل: «المتنبي» أو «الحموي» أو «الماوردي ـ ماء الورد» وغيرها.

إن عاملاً مهماً لعب دوراً في تسريع عملية التعريب، وهو زواج المحاربين والمستوطنين العرب بنساء المناطق المفتوحة. ولنا مثال على هذا، ان معظم الخلفاء الأمويين وخصوصاً العباسيين كانوا من أمهات غير عربيات أي من (الإماء) وهن بمعظمهن من نساء العراق والشام، بالاضافة الى نساء من البربر والاقباط والأكراد والفرس والروم والتركمان. لقد استغرقت عملية الأسلمة والتعريب هذه عدة قرون، بل المصادر التاريخية تذكر أن الكثير من أرياف العراق والشام ظلت على مسيحيتها ولغتها السريانية (النبطية) حتى بعد قرون عدة من الفتح العربي.

من دون أي مبالغة وبكلام علمي دقيق، نقول أن تنظيم القبيلة العربية من الانفتاح والسعة بحيث يمكن مقارنته بتنظيم (الحزب السياسي) في العصر الحديث من حيث انفتاحه وتقبله كل الراغبين من مختلف الجماعات والأفراد التي تود الدخول فيه وتطلب حمايته، لأن عملية الكسب هذه تقوي القبيلة وتزيد من هيبتها وعدد رجالها ومحاربيها وتضمن الحماية للجماعات المنتمية اليها.

إن نظام الانتماء والكسب هذا المسمى بنظام (الحلف والموالاة) ظل سائداً بين القبائل والقرى في المشرق حتى أواسط القرن الحالي، حيث تفرض عشيرة قوية هيمنتها على عشائر وقرى المنطقة تحت راية شيخ محارب واسم قبائلي مشترك، ومع مرور الزمن والأجيال يسود الجميع الاعتقاد بأنهم منحدرون من أصل واحد وسلف أسطوري مشترك. يمكن ذكر أمثلة كثيرة من العراق الحديث مثل «حلف المنتفك» و « حلف بني لام» و«حلف البو محمد» في وسط وجنوب العراق. الملاحظ هنا ان بعض التحالفات القبائلية كانت تضم أيضاً جماعات عراقية ليست بالضرورة أن تكون آرامية نبطية أو عربية، بل كذلك جماعات مشرقية أخرى مثل الأكراد والفيلية والتركمان، الممتزجين والمتزاوجين مع العرب، وهذه حالة بعض أقسام من قبائل البيات والقيسية وربيعة والجبور.

يمكن الاستشهاد بمثال قبيلة (البيات) العراقية، المنتشرة فروعها من شمال العراق الموصل وكركوك مروراً ببغداد وديالى ثم واسط والحلة، ومركزها في الخالص. هذه القبيلة لعبت دوراً أساسياً في جميع أحداث العراق في العصر العثماني. البيات يعتقدون بانتسابهم الى قبيلة (آل ربيعة) التي تنتسب بدورها الى بني طي. لكن هذه القبيلة تحتوي على معظم تنوعات الشعب العراقي: التركمان والأكراد والفيلية بالاضافة الى العرب. كما يذكر الباحث (فرحان سعيد)، فإن قبيلة البيات «مخلوطة من العرب وغيرهم، وان كثيراً من أفراد القبائل التي كانت تطاردهم السلطات التركية، قد انضموا الى البيات، حتى اصبح عددهم 10000 كوخ وخيمة...» إن مثل هذا الاختلاط في القبيلة الواحدة لا يخص البيات إنما جميع القبائل العراقية (نفس الشيء بالنسبة لباقي العالم العربي). ويضيف الباحث: «إن هذا الأمر ينطبق على غالبية العشائر العربية في العراق، فالعشيرة تتألف عادة من العرب (الأقحاح!) ومن الحلفاء الذين ينضمون اليها ... والواقع أن العشائر المعاصرة لا تضم وحدة دموية متجانسة إنما هي مجموعة من البطون المتحالفة والمندمجة بعضها ببعض... التي جمعتها المصالح المشتركة والتضامن ...». (آل ربيعة الطائيون ـ فرحان سعيد ص317).

وآل ربيعة الطائية الذين ينتسب اليهم البيات، كانوا يحكمون منطقة ممتدة من حلب وحماة والأردن وفلسطين حتى حدود بغداد، ومقرهم قرب مدينة (عانة) العراقية، وأميرهم «أبو ريشة» لقب بملك العرب. وينتسب الى آل ربيعة ثلاثون عشيرة كبرى في العراق والشام، وكل عشيرة لها عشائر تنتسب لها، كل واحد من هذه العشائر الفرعية لها عشائر أيضاً تحتمي بها

وتحمل اسمها، وهكذا دواليك بحيث أن الباحث بأنساب العشائر يضيع لا محالة في مسميات وادعاءات وتشابه أسماء وألقاب تجعل من المستحيل التصديق بحقيقة أي ادعاء قبائلي. وتدحض ما يسمى بـ «علم أنساب العرب». إن تفاصيل تاريخ العشائر العربية الحالية في المشرق تكشف لنا ان هذه القبائل لم تستوعب في داخلها فقط الجماعات المشرقية السريانية بل حتى الجماعات اليهودية والكردية والفارسية والتركمانية والافريقية والاغريقية وغيرها، أي مختلف الجماعات القديمة والجديدة المستوطنة في المشرق.

**ثالثاً : الفتوحات**

يمكننا أن نضيف الى عملية التعريب بالحلف والموالاة هذه ما يمكن تسميته بـ «عملية التعريب بالوساطة»، أي تعريب المناطق الجديدة عن طريق توطين جماعات غير عربية أصلاً، ولكن تم تعريبها قبل توطينها في المناطق الجديدة. يمكن أن نستشهد على هذه الحالة بدور المشارقة في تعريب مصر وشمال افريقيا ثم الاندلس. من المعروف أن بلدان المشرق هي التي أصبحت موطن التعريب بعد أن أصبحت موطن الامبراطورية العربية الاسلامية في دمشق أولاً ثم في بغداد. ان الكثير من سكان المشرق تطوعوا في الجيوش العربية طمعاً بالامتيازات ومغانم الفتوحات. ثم أن العرب ما كانوا متمرسين بأمور التقنيات الحضارية والحربية والادارية فاضطروا للاعتماد على أهل المشرق في بناء دولتهم وجيوشهم وأساطيلهم. على هذا الأساس فان الفتوحات تمت بواسطة جيوش وبحارة وإداريين وحرفيين معظمهم من سكان المشرق الأصليين (سريان بأكثرهم وكذلك يهود وأكراد وتركمان وأرمن واغريق ورومان وغيرهم). لكن هؤلاء المشارقة عندما وصلوا الى البلدان المفتوحة حلوا فيها على أساس أنهم «عرب» لأنهم كانوا مسلمين وناطقين بالعربية وقادمين من عواصم الحضارة العربية الاسلامية. لهذا فإنهم قاموا بدورهم في تعريب البلدان المفتوحة ونقلوا اليها الحضارة المشرقية المغطاة بالاسلام واللغة العربية. ولنا مثل واضح جداً هو دور الجماعات البربرية المغربية في تعريب بلاد الأندلس بالتكاتف مع الجماعات السورية التي قادت الدولة الأموية في الأندلس. والطريف أن هذه الجماعات المسلمة (السورية البربرية اليهودية الاسبانية) عندما هربت الى المغرب بعد سقوط الاندلس، لعبت دوراً مهماً في إتمام تعريب بلدان المغرب! من هذا يمكن تشبيه عملية التعريب التي جرت في البلدان العربية أشبه بـ «الكرة الثلجية» التي تكبر وتكبر كلما تدحرجت أكثر.

**رابعاً : الميراث المسيحي :**

إن الدور التاريخي الكبير الذي قامت به القبائل العربية وهي تحمل رسالة التوحيد والوحدة باسم الاسلام واللغة العربية ، كان من المنطقي أيضاً أن تقوم به سابقاً الديانة اليهودية أو المسيحية. لكن اليهودية تجربة أولية ظلت أسيرة انتمائها القبلي الضيق وحدودها العنصرية العبرانية. ويمكن القول أن المسيحية هي محاولة أكثر نضجاً لكسر محدودية اليهودية وإعطائها الطابع القومي الشامل لشعوب المنطقة. نجحت المسيحية أن تكون تقريباً الدين الرسمي للأغلبية الساحقة من شعوب المنطقة العربية الحالية من نجران اليمن حتى الكوفة والشام ومصر وشمال افريقيا. حتى العراق الخاضع للفرس الزرادشتيين صار بأغلبيته مسيحياً نسطورياً. التاريخ لن ينسى أن أسلافنا هم من صنع المسيحية وفرضها بدم التضحية على امبراطوريات أوربا وشعوبها. ولكن هذا الدين عجز عن تحقيق الوحدة الروحية والسياسية لشعوب المنطقة بسبب اصطدامه بقوة الهيمنة المادية والروحية الاغريقية ـ الرومانية. ربما هذا يفسر اقبال قادة الدولة والفكر من الرومان والاغريق البيزنطيين (كذلك الفرس ولكن بدرجة أقل) على تبني المسيحية بسبب احساسهم بأن هذا الدين أخذ يتحول الى ايديولوجيا وروح خاصة بشعوب الضفة الشرقية من البحر المتوسط. لقد نجح الرومان والاغريق فعلاً من خلال تبنيهم للمسيحية ان يطيلوا أمد سيطرتهم وبقائهم في المنطقة ، وبالتالي إضعاف أسباب التحرر والتقارب بين شعوبها. ولكن المسيحية بعد اليهودية كانت الخطوة المهمة والممهدة لما قام به الإسلام والعرب في القرن السابع. وهذا بالضبط الذي دفع الاسلام أن يعتبر نفسه ديناً مصححاً ومتمماً لليهودية والمسيحية وجميع أديان المنطقة. وأن يكون العرب الموحدين والدامجين للشعوب السامية ـ الحامية التي سبقتهم.

يمكن تشبيه ما قام به الرومان والاغريق بتبنيهم المسيحية ، بما قام به الأتراك العثمانيون بتبنيهم للاسلام الذي ساعدهم في الهيمنة على المنطقة العربية لقرون عدة. كما أتى الاسلام كقوة روحية مضادة للهيمنة الأجنبية الممارسة باسم المسيحية ، كذلك أتت الحركة القومية العربية كقوة ايديولوجية مضادة للهيمنة التركية العثمانية الممارسة باسم الاسلام. لهذا فان الاسلام لم يأت ضد المسيحية ، بل اعتبر نفسه متمماً لها ومنقذاً لشعوبها من الهيمنة الاجنبية والمانح لها قوة قومية جديدة. هذا يفسر الاقبال السريع على الاسلام والتعريب من قبل هذه الشعوب ، كأنها أدركت بسابقتها التاريخية و (لا وعيها الجمعي)

وفي أعماقها الموروثة تلك الحاجة الى التوحد والتمايز عن جيرانها من شعوب آسيا وأفريقيا وغرب البحر المتوسط.

من هذا يحق لنا الاعتقاد انه من المنافي للحقيقة التاريخية القول أن أجدادنا الذين شيدوا الحضارة العربية الاسلامية هم من العرب الأقحاح وتاريخهم يبتدىء من عصر الفتح العربي الاسلامي. الشعوب العربية والحضارة العربية الاسلامية هي نتاج حضارات جميع الشعوب الأصلية التي امتزجت وذابت بالأقلية العربية التي سيطرت بعد الفتح.

# المانوية .. نموذج لتاريخنا المسروق

تعتبر (المانوية) واحدة من أبرز الأمثلة على التغريب والتشويه اللذين تمت بهما كتابة تاريخ المنطقة العربية، خصوصاً بالنسبة إلى الحقبة «الآرامية السريانية» التي وحدت ثقافياً ولغوياً العراق والشام (بلاد الهلال الخصيب) خلال الألف عام التي سبقت الفتح العربي الإسلامي. ومن المثير للعجب إتفاق جميع المؤرخين العرب والأجانب على اعتبار «المانوية» ديناً آرياً فارسياً رغم جميع الشواهد التي تدحض تماماً مثل هذا الرأي، وتبين بصورة قاطعة أن هذا الدين عراقي الموطن مؤسسه رجل بابلي، واللغة التي نطق وكتب بها هي السريانية، لغة أهل العراق والشام خلال عدة قرون قبل الفتح العربي، والتراث الديني الذي نهل منه هو التراث السامي: البابلي العرفاني المسيحي.

يبدو أن السبب الأول لهذا التشويه التاريخي مرتبط بالفكرة الخاطئة التي تعتبر أجنبياً كل تراث الحقبة التي سبقت الفتح العربي الإسلامي، فهو تراث فارسي فيما يخص العراق، وإغريقي روماني فيما يخص الشام ومصر وشمال أفريقيا. لأنه خلال هذه الحقبة كانت المنطقة خاضعة للسيطرة الفارسية بالنسبة إلى العراق، والإغريقية الرومانية بالنسبة إلى باقي المنطقة. إن التشويه الذي تعرض له تاريخ (المانوية) مثال ساطع على التجاهل والتشويه الشاملين اللذين تعرضت لهما جميع تفاصيل التراث السابق للفتح العربي: التراث العرفاني (الغنوصي) واليهودي والمسيحي والصابئي والمانوي والهرمزي، كذلك جميع الابداعات الثقافية واللغوية والحضارية في مجالات الفنون والعلوم والفلسفة واللغات والآداب السريانية والقبطية. إذ تم احتساب تراث هذه الحقبة على تراث الدول التي كانت مسيطرة على المنطقة.

بعد سقوط بابل في (539) قبل الميلاد على يد الفرس الأخمينيين بسط الإيرانيون نفوذهم على بلاد النهرين حتى القرن السابع، أي ما يقرب من 11 قرناً. تخلل هذه الحقبة ثورات وتمردات فاشلة قام بها العراقيون، بالإضافة إلى حروب طاحنة بين الإيرانيين من جهة والاغريق والرومان من جهة ثانية للسيطرة على العراق. وقد تمكن الاغريق والرومان من انتزاع العراق من الفرس عدة مرات وفرض سيطرتهم عليه مدة عقود وقرون متقطعة، لينتزعه الفرس منهم من جديد. وهذه الحقبة تشبه إلى حد بعيد الحقبة التي أعقبت سقوط الدولة العباسية ونشوب الصراع بين الأتراك والفرس للسيطرة على العراق.

## ظروف نشوء المانوية

خلال هذه القرون الطويلة تمكن أهل النهرين من الحفاظ على هويتهم السكانية والثقافية والدينية المتميزة عن إيران. وظل الانتماء السامي هو السائد وظلت اللغة الآرامية أولاً ثم فرعها السرياني منتشرين بين العراقيين، بل ان العراقيين فرضوا لغتهم السريانية لتكون لغة الثقافة الأولى في الامبراطورية الإيرانية نفسها بحيث فضلت اللغة الفارسية (البهلوية) استعمال الأبجدية السريانية، والتخلي عن نظام الكتابة المسمارية الذي سبق ان اقتبسوه أيضاً من أهل النهرين. ثم إن العراقيين ظلوا بعيدين عن الإيمان بالدين الزرادشتي الذي كان الدين القومي والرسمي للايرانيين. حافظ العراقيون على ديانتهم السامية ــ البابلية الموروثة والقائمة على عبادة الآلهة الممثلة للكواكب وقوى الطبيعة والمنقسمة عموماً إلى ثنائية قوى الخير والنور وقوى الشر والظلام. علماً أن هذه الثنائية البابلية هي التي اثرت في الإيرانيين وديانتهم الزرادشتية، وليس العكس كما توهم عادة المؤرخون. كان هناك ايضاً تواجد مهم لطوائف يهودية نشطة في انحاء النهرين منذ جلبهم من فلسطين على يد الكلدانيين. ومع انبثاق المسيحية في بلاد الشام في القرن الأول الميلادي، بدأت بالتدريج تتسرب الى العراق من القسم الشمالي (الرها ونصيبين) ثم نينوى وكرخاسلوخ (الاسم السرياني لكركوك الحالية) حتى ولاية بابل ومنها الى ولاية ميسان في الجنوب (وكانت تشمل كذلك البصرة والأهواز). وكانت هذه المسيحية مصحوبة بتيارات عرفانية غنوصية وهرمزية صوفية قادمة من الشام ومصر مع بعض التأثيرات الإغريقية. وبدأت تتشكل طوائف مسيحية عدة في شمال ووسط بلاد النهرين، بالإضافة الى الصابئة في الجنوب الذين مزجوا المسيحية بالعرفانية مع أصول الدين البابلي.

## ديانة عراقية

في مثل تلك الظروف السائدة في العراق في القرن الثالث الميلادي نشأ الدين المانوي، حيث اشتق من اسم رجل بابلي أعلن النبوة يدعى (ماني). جميع المصادر التاريخية فارسية وعربية وغربية تتفق على القصة التالية لسيرة هذا النبي: «ولد ماني عام 216 ميلادي في احدى قرى ولاية بابل وكان دينه بابلي (وثني)، وفي سن الرابعة رحل أبوه إلى احدى قرى ولاية ميسان في جنوب العراق. هناك نشأ (ماني) على الدين الصابئي. وفي سن الشباب أخذ (ماني) يتنقل

في أنحاء النهرين واستقر في بابل. أعلن (ماني) نبوته وتكوينه للدين (المانوي) الذي انتشر خلال أقل من قرن من الصين حتى أسبانيا وبلاد الغال...» (لمزيد من التفاصيل راجع الموسوعة الكونية الفرنسية ـ جزء 11ـ ص646).

لكن مشكلة تحديد هوية هذا الدين وصانعه (ماني)، تبدأ عند الحديث عن الشعب والحضارة اللذين ينتمي إليهما. بكل بساطة تم اعتباره إيرانياً فارسياً لأنه ظهر في بلاد النهرين عندما كانت تابعة للأمبراطورية الايرانية. مثلما تم اعتبار المسيح وتراث المسيحية جزءاً من تاريخ روما، لأن المسيحية نشأت في الشام في ظل السيطرة الرومانية!

جميع تفاصيل تاريخ المانوية تثبت بلا جدال عراقية هذا الدين وعلاقته المباشرة بما سبق وبما لحق من تاريخ العراق الفكري والديني حتى نهاية العصر العباسي. ويمكن تقديم المبررات التالية للبرهان علي هذه الحقيقة:

1ـ ثمة تبرير عرقي فارسي طالما تمسك به المؤرخون الإيرانيون والعرب والأجانب قائم على الشك بأن النبي (ماني) ربما يعود بأصوله من ناحية أمه أو أبيه الى الفرس وبالذات إلى العائلة الملكية الأخمينية. لكن جميع الشواهد التاريخية تثبت أن هذا النبي ينتمي عرقياً بصورة أكيدة الى سكان العراق. قد يمكن الافتراض أن أمه فارسية، لكن بعض المصادر تذكر ان اسمها «مريم». أما أبوه فلا يمكن أن يكون فارسياً، وذلك لعدة أسباب: أن اسمه (فاتك)، وهذا الاسم لا يمكن أن يكون فارسياً لأنه اسم سامي عراقي، (من فعل فَتَكَ) ومستخدم حتى الآن في العراق. ثم إن اسم (ماني) هو ايضاً ليس اسماً فارسياً إنما هو اسم سامي كذلك لفظه العربي (أماني) وهو من (التمني) واللقب الذي كان يُعرف به هو (ماني حيا) أي (ماني الحي)، ومنه أتى المصطلح اللاتيني لهذا الدين (Manicheisme) أي (ماني ـ حيا ـ سيم).

2ـ إن الزرادشتية كانت الدين القومي لجميع الايرانيين، بينما عائلة (ماني) مثل باقي العراقيين كانت على الديانة البابلية أولاً عندما كانت تقطن بابل، ثم بعد الاستقرار في ميسان اعتنقت هذه العائلة الديانة الصابئية، وهي طائفة منتشرة حتى الآن في جنوب العراق ـ بما فيه الأهوازـ، ثم إن جميع الباحثين يعترفون بأن علاقة المانوية بالزرادشتية ضئيلة جداً، ولم تدخل بعض التسميات الإيرانية إلى المانوية إلا بعد انتشارها في إيران وترجمة كتب (ماني) السريانية باللغة البهلوية. علماً أن المانوية قد اقتبست الكثير من

المسميات من جميع الشعوب التي وصلتها، فمثلاً في آسيا والصين أطلق (ماني) على نفسه لقب (بوذا الحي). وغدا واضحاً أن المانوية كانت متأثرة أساساً بالدين المسيحي وبالذات بالأفكار الثنوية للقديس السرياني (بن ديصان) الذي دعا إلى نوع من المسيحية الثنوية، بالاضافة الى المعتقدات البابلية والسامية السائدة. لقد استخدم (ماني) أساساً اسماء ملائكة اقتبسها من البيئة السريانية، مثل جبرائيل ورفائيل وميخائيل وإسرائيل، بالاضافة إلى يعقوب نبي العهد القديم. واعتبر (ماني) نفسه خاتم الانبياء والروح القدس التي تحدث عنها المسيح.

إن (الثنوية) التي اعتقدت بها المانوية لم تكن ايرانية، كما تصور خطأ الكثير من المؤرخين، بل هي أساس المعتقدات البابلية والسامية. يكفي معاينة أديان السومريين والساميين لإدراك أن هناك دائماً آلهة للخير والنور بأسماء متنوعة مثل (تموز وبعل وشمش وإيل ومردوخ وآشور) تقابل آلهة الشر مثل (نرجال وأريشكيجال وايراومروت). وثنائية الخير والشر هذه وجدت تعبيرها في الأديان السامية السماوية من خلال مفهوم الله رمز الخلق والخير والنور، والشيطان رمز الشر والخطيئة والظلام. (راجع السواح ـ مغامرة العقل ـ ص197).

3ـ المؤرخون قاطبة يتفقون على أن (ماني) ولد وعاش في بابل وميسان، وكانت لغته الأم ولغة كتبه وإنجيله المعروف هي اللغة السريانية، وقد ترجمت جميع كتبه فيما بعد باللغات الفارسية والتركية (الايغورية) واليونانية واللاتينية والقبطية. وبدأ بنشر دينه أساساً بين سكان النهرين. يمكن الاستشهاد بماني نفسه وهو يحدد بدقة وبعبارة صريحة غير قابلة لسوء الفهم، إنتماءه إلى أرض بابل وتمايز دينه عن باقي الأديان: «إن الحكمة والمناقب لم يزل يأتي بها رسل الله بين زمن وآخر، فكان مجيئها في زمن على يد الرسول (بوذا) إلى بلاد الهند، وفي زمن على يد (زرادشت) الى أرض فارس، وفي زمن على يد (عيسى) إلى أرض المغرب (الشام). ثم نزل هذا الوحي وجاءت النبوة في هذا الزمن الأخير على يديّ أنا (ماني) رسول إله الحق الى أرض بابل ...» (راجع ـ إيران في عهد الساسانيين ـ ص 172). ثم إن الأكثر من كل هذا إصرار (ماني) على جعل بابل مقر الكنيسة الأم ومركز المرجعية الدينية والحوزة العلمية لجميع الطوائف المانوية في العالم، وبقي هذا التقديس الخاص لبابل لدى المانويين حتى نهايتهم بعد ألف عام.

## احتقار الحياة

يمكن اعتبار المانوية أساس التصوف، فهي دين (غنوصي ـ عرفاني) متطرف في الزهد والتنسك وتقديس الموت واحتقار ماديات الحياة. قد تكون المانوية التي نشأت في العراق تعبيراً عن ردة فعل سلبية ومتشائمة إزاء الظروف القاسية التي عاشها العراقيون بسبب السيطرة الفارسية وفشل ثوراتهم ودمار النهرين بعد تحول البلد الى ساحة للحروب الدائمة بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية. ثم الشعور بالخيبة والحسرة على ضياع أمجاد بابل القديمة وفقدان الامل بأية قدرة على الخلاص إلا بالزهد وتجنب ملذات الحياة.

الفكرة الاساسية للمانوية يمكن ايرادها باختصار كالتالي: إن الله هو الخير والنور، والشيطان هوالخطيئة والظلام. جميع الأشياء المادية من أرض ونبات وحيوان وأجساد هي جزء من قوى الخطيئة والظلام، وجميع الأشياء الروحية من حلم وعقل وخيال هي جزء من قوى الخير والنور. إذن على الإنسان التواق إلى الخير والخلود في حدائق النور (الجنة) أن يحتقر الجسد وجميع ماديات الوجود، بالامتناع عن: الجنس والخمر واللحم، وتجنب جميع الخطايا. وقد يصل الأمر إلى حد احتقار الحياة ونبذ الجسد وتفضيل الموت من أجل تخليص الروح والنور من سجن الجسد والظلام. واعتبر (ماني) أن روح الانسان المنيرة تتعذب في الجسد، صليب الظلام، مثلما تعذب (عيشو زاهي) (عيسى الزاهي) على صليبه.

إن الخطيئة ترتكب بثلاث وسائل: القلب (النية) والفم (الكلمة) واليد (الفعل). لهذا فإن وصايا (ماني) كانت: «لا ترتكب الخطيئة، لا تنجب، لا تملك، لا تزرع ولا تحصد، لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً». طبعاً مثل هذه الوصايا لا يستوجب تطبيقها من قبل جميع أتباع المانوية إنما فقط من قبل النخبة الدينية المنقسمة إلى أربع مراتب: 12 حواريون، 72 شماسون، 360 عقلاء، ثم الصديقون غير محدودي العدد. أما باقي المجتمع فيطلق عليهم (السماعون) الذين يلتزمون فقط بالصلاة أربع مرات يومياً، والسجود 12 مرة في كل صلاة، والصوم شهر كامل كل عام في نيسان، ودفع العشر والزكاة وتقديم الغذاء للصديقين.

تعتمد المانوية على كتب (ماني) المليئة بالشروحات والحكايات والأساطير المعقدة والمفصلة جداً. الأسطورة المانوية عن تكوين الخليقة تشبه إلى حد بعيد الأسطورة السومرية ـ البابلية المعروفة «حينوما عاليش» (حينما عالياً، أو حينما في الأعالي)، لكن أسماء الآلهة السامية القديمة تستبدل بها أسماء سريانية ومسيحية محدثة. مذهب التثليث في المسيحية (الأب والأبن

والروح القدس) يستبدل (ماني) به «العظيم الأول» و «أم الحياة»، علماً أن هذا التثليث موجود في جميع الأديان البابلية والسامية، ولكن بأسماء مختلفة (مثلاً في قصة الخليقة البابلية هناك أبسو ـ الأب، وممو ـ الأبن، وتعامة ـ الأم) (راجع السواح ـ مغامرة العقل). والطريف أن فكرة (تناسخ الأرواح) التي اقتبسها (ماني) من البوذية، حورها تماماً بما يتلاءم مع عقيدته الخاصة. ليس أي انسان يموت تنتقل روحه تلقائياً إلى إنسان آخر، إنما يعتمد ذلك على كونه خاطئاً أم لا. لأن تكرار الحياة يعتبر نوعاً من العقاب. فالإنسان النقي المؤمن تذهب روحه مباشرة إلى حدائق النور جنان الله، أما الإنسان الخاطيء فيعاقبه الله بإنتقال روحه إلى إنسان آخر ليعيش حياة أخرى وأخرى حتى يصبح نقياً ومؤمناً، فيتوقف التناسخ وتذهب روحه إلى جنة الخلود.

## تاريخ ماني والمانوية

ولد (ماني) في 14 نيسان (أبريل) عام 216 ميلادية قرب (المدائن) التي كانت مركز ولاية بابل والعاصمة الثانية للأمبراطورية الإيرانية. ولهذا يطلق على هذا النبي لقب (ماني البابلي) ويقول عنه المؤرخون العرب والمسلمون: «نبي الله الذي أتى من بابل» (راجع فهرست ابن النديم).

عندما كان (ماني) في سن الرابعة رحل به والده (فاتك) إلى قرية في ولاية ميسان جنوب العراق. ويبدو أن قرار الرحيل قد اتخذه الأب بعد أن تلقى ثلاث مرات نداءات إلهية بينما كان يتعبد في إحدى المعابد البابلية تدعوه الى الرحيل إلى ميسان وكذلك تجنب الخمرة واللحم والجنس. في ميسان اعتنق (فاتك ) دين الصابئة الذين يتكلمون لهجة آرامية قريبة إلى السريانية. وكان هذا الدين سائداً في جنوب العراق قبل هيمنة المسيحية ويسميه العرب كذلك (دين المغتسلة) بسبب تقديسهم لعملية التطهر بالماء. وهو دين مزج بين روحانيات العرفانية والمسيحية (الشامية) مع رموز عبادة الكواكب البابلية، ويرتبط باسم النبي يحيى أو (يوحنا المعمدان) (لمزيد من المعلومات راجع الثقافة الجديدة ـ 248 ـ ص25).

بقي (ماني) صابئياً حتى سن الواحدة والعشرين، بعدها بدأ تأثره مباشرة بالمسيحية وخصوصاً بالتجربة الحياتية للسيد المسيح وعذابات صلبه. وتذكر التقاليد المانوية أنه في سن الرابعة والعشرين، في 23 نيسان 240م تلقى (ماني) رسالة النبوة من الله بواسطة الملاك (توأم ـ توما) على أنه هو (الروح القدس) الذي بشر به النبي عيسى. حينها بدأ

(ماني) يعلن أنه (نبي النور) و (المنير العظيم المبعوث من الله)، نتيجة هذا تم طرده من الطائفة الصابئية.

رحل (ماني) مع أبيه وإثنين من أصحابه إلى بابل، منها قام بأول رحلة عبر بلاد فارس ثم الى الهند وبعدها إلى بالوشستان حيث عاين ودرس الأديان السائدة من زرادشتية وبوذية وهندوسية. بعد عامين (242م) عاد (ماني) إلى ميسان بحرا عبر الخليج. وتذكر المصادر التاريخية أن ثمة قبائل عربية قادمة من عمان كانت متنفذة حينذاك في ميسان تحت سيطرة الحكم الفارسي (راجع ايران في عهد الساسانيين ـ ص75). هناك شاءت الظروف أن يخوض (ماني) تجربة مشهودة مكنته من فرض تأثيره على حاكم ولاية ميسان الفارسي (مهرشام) وكسبه الى جانب المانوية. وكان (مهر شام) هذا ايضاً شقيقاً للأمبراطور الأيراني (شاهبور) حيث توسط لدى أخيه ليسمح لـ (ماني) بنشر دينه دون مضايقة. ومن المعروف عن (ماني) أنه بالاضافة الى شخصيته النبوية فإنه كان طبيباً ونقاشاً ورساماً وكاتباً ومترجماً. وهو النبي الوحيد الذي قام بنفسه بكتابة إنجيله وباقي كتبه المعروفة التي تزيد على سبعة، بينها كتاب مزين برسوم توضيحية ملونة، يعتقد أنها شكلت الأساس الأول لانبثاق فن النمنمة العراقي العربي ثم الفارسي والتركستاني (راجع الموسوعة الكونية ـ المصدر نفسه).

بدأ (ماني) بتكوين كنيسته في بابل وأطلق عليها (كنيسة النور) وانتشرت الكنائس أولاً في بلاد النهرين: ميسان والأهواز وبابل ونينوى وكركوك. لكن (ماني) لم يكتف بحدود النهرين بل اعتبر نفسه (عيسى المخلص للانسانية جمعاء) وأنه (خاتم الأنبياء) ويقول في هذا الخصوص: «ندائي يتجه نحو الغرب وكذلك نحو الشرق، وهو يسمع بجميع اللغات وفي جميع المدن. كنيستي تفوق الكنائس السابقة، لأن تلك الكنائس قد اختيرت لبلدان ومدن محددة، بينما كنيستي أتت لجميع البلدان، وإنجيلي يبتغي جميع الأوطان..» (الموسوعة ـ المصدر نفسه). لهذا بدأ (ماني) يبعث تلامذته (الحواريين) الاثني عشر إلى جميع بقاع الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية لنشر الدعوة الجديدة. فبعث أولاً الى الشام ومصر ثلاثة من حواريه، توما وهرمس وعدي. وخلال أقل من قرن انتشرت المانوية في مختلف بقاع الأرض من شواطىء المحيط الهادي والهند والصين والتبت وسيبريا وتركستان وإيران ثم جميع الضفاف الشرقية للمتوسط حتى إيبريا وإيطاليا وبلاد الغال. لقد وجدت آثار معابد وكتابات ورسوم هذا الدين في جميع هذه البقاع، وأهم الوثائق وجدت في جنوب مصر (الفيوم) مكتوبة باللغة القبطية. يبدو أن المانوية كان لها الانتشار خصوصاً بين الطوائف

المسيحية بسبب علاقتها المباشرة معها . ومن أهم الذين تحدثوا عنها هو القديس (أوغسطين القرطاجي) الذي اعتنقها لعدة سنوات قبل أن يصبح فيلسوف المسيحية الأول.

في تاريخ غير محدود بصورة تامة، بين (274ـ277) ميلادية تم صلب (ماني) على أحد أبواب مدينة بيت العابات (جندشابور) في الأهواز، تم ذلك بقرار من الامبراطور الفارسي (برهام الأول) لأسباب سياسية طبعاً وبعد تحول (بابل) إلى مركز لدين عالمي واحتمال استعادتها من جديد لأمجادها السابقة وما يشكله هذا من خطر على النفوذ الايراني. كذلك خوف رجال الدين الزرادشتيين الذين نقموا على (ماني) بسبب تأثيره المتزايد. لقد عذب (ماني) وصلب وقطعت أطرافه ثم احرقت جثته ونثر رماده. لكن المانويين ظلوا يعتقدون بصعوده إلى السماء مثل السيد المسيح، ويعتبرون هذا اليوم مقدساً يصومون خلاله ثلاثين يوماً في شهر نيسان.

الضربات التالية تلقتها المانوية على يد الرومان. في عام 445م أعلن البابا (ليون العظيم) قراره بتحريم نشاط المانوية. وفي عام 527م قرر الامبراطور (جوستان) الحكم بالاعدام على جميع أتباع المانوية. لكن الكثير من المؤرخين الأوروبيين يعتقدون أن المانوية ظلت حية في أوربا بأشكال خفية متعددة، خصوصاً بين الطوائف المسيحية السرية المؤمنة بالتصوف والروحانيات والطقوس السحرية والتي تعتمد في إيمانها على الأفكار الثنوية (Ledualisme).

في القرن الخامس حدث أول انشقاق في الكنيسة المانوية، حيث تم انفصال الطوائف المانوية في اسيا الوسطى (تركستان ومنغوليا)، ورفضوا تبعيتهم لكنيسة (بابل) وكونوا كنيستهم القومية. ثم اعقب ذلك انشقاق الكنيسة المانوية في بلاد فارس وذلك بتكوين فرع قومي مستقل عن بابل حمل اسم (المزدكية) نسبة الى مؤسسها (مزدك) الفارسي. يبدو أن هذه الطائفة ابتعدت عن المانوية بالاقتراب أكثر ناحية (الزرادشتية)، مع ميول «ثورية واشتراكية». ربما لهذا السبب خلط معظم المؤرخين المسلمين والعرب بين المانوية (العراقية) والمزدكية (الايرانية)، علماً أن طائفة (المزدكية) أثناء نفوذها في الدولة الايرانية قامت باضطهادات ومذابح معروفة ضد المسيحية والمانوية في بلاد النهرين مما أدى إلى هجرة الكثير من المسيحيين والمانويين العراقيين إلى بلاد تركستان (الصغد) وتكوين جاليات مانوية مسيحية نسطورية نشطت بنشر الثقافة السريانية البابلية.

إن الهروب المستمر للمانوية من العراق والمشرق وخصوصاً أثناء اضطهادات الفترة العباسية أدى إلى تزايدهم في أواسط اسيا التركية المنغولية. في عام 745 كون الأتراك دولتهم

(الأوغرية) على حدود الصين في منغوليا الشمالية. كان أحد ملوكهم يسمى (بوقي خان ) اعتنق المانوية وجعلها الدين الرسمي للدولة. من خلالها وصلت المانوية إلى الصين فشيدت المعابد المانوية إلى جانب المعابد البوذية حتى وصلت إلى روسيا وسيبريا. لكن نهاية الدولة التركية الأوغرية عام 817 على يد القرغيز أدى الى نهاية المانوية في آسيا. ويُعتقد أنها استمرت في تركستان الصينية حتى القرن الثالث عشر، ومع اجتياح المغول بقيادة جنكيز خان تم القضاء التام على المانوية. لكن الأثر الكبير الذي تركه هذا الدين في شعوب آسيا يتمثل في تبنيهم للأبجدية المانوية (السريانية) في كتاباتهم الأوغرية التركية، بالإضافة إلى تأثيرات ثقافية ودينية لا تحصى.

## الاسلام والمانوية

كانت القبائل السامية (العربية) النازحة قبل الاسلام تندمج طبيعياً مع أهل النهرين وتتبنى الأديان السائدة مثل اليهودية والصابئية والمسيحية والمانوية. يذكر أن عمر بن عدي ملك الحيرة العربي كان من أنصار المانوية وحماتها المعروفين. يتحدث المؤرخ الإسلامي (ابن قتيبة) عن وجود المانوية في مكة قبل الاسلام: «وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة». علماً أن تسمية (زنديق) قد شاعت في الفترة الإسلامية بمعنى (المانوي). لقد اقتبس العرب هذه التسمية من الفرس الذين كانوا منذ قرون يطلقونها على المانوية بمعنى (المنحرفين عن الدين)، وهناك من يعتقد أنها ربما كانت مشتقة من (صديق) السريانية وتعني رجل الدين المانوي (للمزيد من التفاصيل عن المانوية والإسلام، راجع ـ التاريخ الاسلامي ـ فاروق عمر ـ ص 193 ـ 213).

يبدو أن الفتح العربي لم يضعف المانوية بل على العكس منحها بعض الزخم بسبب كثرة اتباع المانوية في العراق بعد هجرة الأعداد الكبيرة منهم من الشاميين والمصريين إلى العراق بعد حكم الاعدام الذي كان قد أصدره الرومان بحقهم. ثم إن الإسلام في أول الأمر لم يكن موقفه واضحاً من المانوية، وقد اعتبرها في البدء من أديان أهل الكتاب. في العصر الأموي تمتع أتباع المانوية ببعض الحرية خصوصاً في زمن الخليفة (الوليد الثاني 743ـ744). وتذكر المصادر العربية أنه بين 754ـ775م كان (إمام الكنيسة المانوية) في أفريقيا هو أبا هلال الديهوري. ومما ساعد على نشاط المانوية في العصر الأموي استخدام الكثير من اتباعها كُتّاباً في الدواوين في العراق بدل المجوس الفرس، وذلك بعد قرار تعريب الدواوين في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي بعد أن كانت باللغة الفارسية. ويبدو أن الاستعانة بأتباع المانوية في الدواوين وسع المجال

أمامهم وركز أهميتهم. (نموذج ساطع لسوء فهم المؤرخين العرب، عندما يستغرب مؤرخ «قومي!» مثل عبد العزيز الدوري هذا التحول نحو المانوية في الدواوين الأموية، لأنه لا يدرك أن الزرادشتيين فرس ولا يتقنون غير الفارسية، أما اتباع المانوية فأنهم عراقيون فكانوا يتقنون العربية القريبة من السريانية، لغتهم الأصلية. ولهذا تم استخدامهم في عملية تعريب الدواوين) (راجع ـ الدوري ـ الجذور التاريخية للشعوبية ـ ص22).

رغم تزايد الاضطهاد ضد المانوية في الفترة العباسية بإسم مكافحة الزندقة والمثنوية والإلحاد والدهرية والمجون، إلا أن أتباعها كانوا نشيطين خصوصاً في المجال الفكري، وشكلوا الحلقات الثقافية التي يطلق عليها «إخوان الصدق» (لاحظ التشابه مع «اخوان الصفا»). ويصف الجاحظ نوعية كتبهم بأنها : «أجود ما تكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجاد له الخط». ويذكر المؤرخون المسلمون أسماء لا تحصى من المثقفين الذين اتهموا بالزندقة (المانوية) في هذه الفترة. (قد يمكن تشبيه تهمة المانوية والزندقة بتهمة الشيوعية والماركسية التي سادت العصر الحديث). وقد شملت هذه التهمة كتاباً وشعراء مثل : صالح ابن عبد القدوس، بشار بن برد، أبو النواس، أبو العتاهية، حماد الراوية، عبد الله بن المقفع .. وغيرهم. وقد حكم بالموت على الكثير من هؤلاء المثقفين بسبب هذه التهمة. وهذا النشاط المانوي دفع الكثير من المثقفين المسلمين إلى تأليف الكتب للرد عليها وتفنيدها، مثل: واصل بن عطاء، الجاحظ، أبو محمد بن الحكم، الجبائي، النوبختي، المسعودي، الرازي، الرقي ... وغيرهم (راجع فاروق عمر ـ المصدر نفسه).

يعتبر الخليفة العباسي (المهدي) (775ـ785)، أول من أعلن الحرب ضد المانوية وجميع التيارات الفكرية المعارضة باسم مكافحة الزندقة، حتى سمي (قصاب الزنادقة). وقد أنشأ من أجل ذلك (ديوان الزنادقة) بقيادة (عريف الزنادقة). وكان اتباع المانوية يجبرون على المثول أمام القاضي، ثم يبصق المتهم على صورة (ماني) ويذبح طائراً، ذلك لأن المانوية تحرم ذبح الحيوان. وفي حالة رفضه التوبة فإنه يحكم بالموت. وقد اوصى المهدي ولده الهادي طالباً منه الاستمرار في محاربة المانوية، قائلاً : «إني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين». وفي أواخر العهد العباسي توسعت تهمة (الزندقة) حتى وصلت على يد الإمام الغزالي الى كل محاولة اجتهادية تخالف المذاهب السلفية وتنحرف عنها في التفسير (راجع فاروق عمر ــ المصدر نفسه). واستمر الاضطهاد وتعاظم مع الخليفة (المقتدر)

(908ـ932)، وحسب (فهرست ابن النديم)، أنه في أواخر القرن العاشر الميلادي قد هبط عدد رموز المانوية في بغداد من 300 شخص إلى 5 أشخاص فقط. بسبب اضطهاد العباسيين اضطر الكثير من اتباع المانوية إلى الهروب من العراق إلى خراسان وكردستان وتركستان (ربما يكون اليزيديون في شمال العراق من بقايا المانوية الذين هربوا من اضطهاد العباسيين).

## خاتم الانبياء

من الخصال الكبيرة التي تميز بها الاسلام والمسلمون الأوائل هي القدرة على استيعاب معارف ومعتقدات الشعوب التي بدأ ينتشر بينها الاسلام. فمن المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية بنت عظمتها من انفتاحها أولاً على تراث الشعوب التي أسلمت واستعربت، خصوصاً حضارات بلاد النهرين والشام ومصر وشمال أفريقيا. ففي العراق مثلاً، بالإضافة إلى تراث المسيحية النسطورية والصابئية واليهودية، لعبت المانوية دوراً كبيراً في نقل الكثير من المعتقدات البابلية والعرفانية الصوفية إلى الحضارة العربية الإسلامية. يكفي ملاحظة التشابه الكبير بين الفلسفات الإشراقية والصوفية العربية الاسلامية وبين المانوية، ليس صدفة أن التصوف نشأ في حواضر العراق، البصرة والكوفة وبغداد، لأن الكثير من اتباع المانوية الذين تحولوا إلى الاسلام نقلوا معهم معتقداتهم الإشراقية والصوفية البابلية ومزجوها بالإسلام. طبعاً هذا لا ينفي التأثيرات المباشرة للمسيحية والعرفانية الشامية المصرية، بالإضافة إلى المجوسية الإيرانية والأفكار اليونانية. ومن التشابهات الواضحة بين المانوية والإسلام، أن (ماني) ادعى أنه النبي المخلص الذي بشر به المسيح وأنه (خاتم الأنبياء). بالإضافة إلى تشابهات أخرى مثل تحريم الخمر، والصيام 30 يوماً، والوضوء بالماء أو التراب، والركوع أثناء الصلاة، وتفاصيل وصف الجنة والنار ويوم القيامة والحساب وعبور الصراط المستقيم. كذلك وجوب مساهمة أتباع المانوية (السماعين) بدفع جزء من أموالهم (عشر) و(زكاة) لرجال المانويين (الصديقين).

ويمكن الافتراض أن المانوية قد لعبت دوراً مهماً في تكوين الكثير من الطوائف الصوفية والباطنية مثل الاسماعيلية والعلوية والدرزية. أما بالنسبة إلى تشابه المانوية مع المذهب الشيعي فإنها تبدو قوية بحكم انبثاق التشيع في اراض النهرين حيث كانت المانوية نشيطة. إن الكثير من اتباع المانوية (وكذلك النسطوريين) دخلوا المذهب الشيعي بحكم اشتراكهم مع باقي العراقيين في معارضة الحكمين الأموي ثم العباسي. يمكن ملاحظة هذا التشابه في مسألة الأئمة الإثني

عشر (حواريوا ماني كانوا كذلك 12 ، مثل السيد المسيح). بالإضافة إلى الميول العرفانية والإشراقية في المذهب الشيعي القريبة جداً من إشراقيات المانوية. ثم إن مفهوم «الاستشهاد» وتضحية (ماني) بحياته من أجل خلاص ملته له تشابه كبير مع تبجيل الشيعة لذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) وتضحيته بحياته من أجل تقويم الإسلام. ويبدو أن طقوس الاحتفال بذكرى كربلاء وأيام عاشوراء تتشابه مع طقوس احتفال المانوية بذكرى استشهاد ماني وصلبه ، وهذه بدورها لا تبتعد كثيراً عن طقوس الاحتفال بصلب المسيح ، وقبلها لدى سكان العراق والشام بذكرى موت تموز (بعل) وعودته إلى حياة الخلود. ثم ان التشابه الأهم من ذلك بين الشيعة والمانوية إختيار (الحلة) ثم (النجف) التي هي جزء من أرض بابل التاريخية لتكون مركز الشيعة في العالم والمنطقة المقدسة ومقر الحوزة العلمية كما اختار المانويون وقبلهم أهل النهرين (بابل) لتكون المركز المقدس لديانة أسلافهم.

## مقترحات لتوحيد تاريخنا الممزق

إن التمادي في تجاهل الحضارات القبلاسلامية أثر سلباً وشوه كذلك الرؤية الواقعية للحضارة العربية الاسلامية. جميع المؤرخين العرب والاجانب اتفقوا على القطع التعسفي للأصول الوطنية العريقة للحضارة العربية الاسلامية. بالنسبة لهم أن الجذور الأولى لحضارة العرب لا تتعدى أصول البداوة وشعر المعلقات وسجع الكهان. إذن، فإن كل ما هو غير ذلك فهو أجنبي: الفنون فارسية والتصوف هندي والفلسفة اغريقية!

لقد تناسى هؤلاء المؤرخون حقيقة تزيد اثباتاً بعد كل عام مع تزايد الاكتشافات التاريخية والأثرية، وهي أن الذين صنعوا الحضارة العربية الاسلامية ما هم إلا أحفاد وورثة، بشرياً وحضارياً للشعوب والدول والأديان السابقة، رافدية وفينيقية ومصرية وقرطاجية ويمنية.

في جميع نتاجات الحضارة العربية الاسلامية نجد الاصول الأولى للحضارات السالفة في الدين الاسلامي تكمن في الإرث الروحي والديني لشعوب المنطقة: (اليهودية والمسيحية والأديان والميراثات السامية ـ المصرية ثم الشرقية العالمية). أما بالنسبة للثقافة والفنون والعلوم وأنماط الحياة والإبداعات الجمالية نجد خصوصاً تأثيرات الشعوب السامية الحامية أولاً ثم بعدها التأثيرات الفارسية والآرية والتركية والافريقية. في التصوف الاسلامي هناك أثر الهنود والصينيين ولكن التصوف المسيحي الشرقي وكهان أديرة الصحارى العربية يبقى هو أساس التصوف العربي الاسلامي.

إن أفظع درجات سوء الفهم ومسخ التاريخ تتجلى في تعاملنا مع تاريخ وأصول الفلسفة العربية الاسلامية. إن جميع المؤرخين عرباً وأجانب اتفقوا على اعتبار اصول الفلسفة العربية اغريقية وأوروبية. لأن الاعتقاد السائد أن العقل الشرقي (السامي الحامي العربي) هو بطبعه روحاني وديني ومثالي مخالف لروح المنطق والعقلانية والتفلسف التي هي خصوصيات اغريقية لاتينية أوروبية!

والحقيقة أن تفاصيل التاريخ تبين أن ما يسمى بالفكر والفلسفة الاغريقية هي ليست اغريقية تماماً رغم أنها كتبت باللغة الاغريقية ثم اللاتينية.

لقد اتفق المؤرخون على التمييز بين مرحلتين: أولهما الحضارة الهيلينية التي نشأت في أثينا والجزر الاغريقية قبل الميلاد ببضعة قرون، واعتمدت كثيراً على ما اكتسبته من الحضارات

الشرقية وخصوصاً نظام الابجدية الذي كان ثورة كبرى في الحضارة البشرية ودليل ساطع على منطقية وعقلانية الفكر السامي.

بعد القرن الثالث قبل الميلاد فرض الاغريق وبعدهم الرومان سيطرتهم العسكرية والسياسية على الضفة الشرقية للمتوسط، فتكونت بذلك حضارة وفلسفة جديدة ميزها المؤرخون باسم الحضارة (الهلنستية) أي الحضارة التي نشأت من مزج العقل الاغريقي واللاتيني مع العقل الشرقي السامي الحامي. وازدهرت هذه الحضارة في مدن الساحل الشرقي مثل انطاكيا (السورية) والاسكندرية (المصرية) ثم حران ونصيبين والرها في بلاد النهرين بالاضافة الى قرطاجة والقيروان في شمال افريقيا. أما في بيروت فقد نشأت أكبر المدارس الحقوقية التي أغنت الحضارة الرومانية. وساهم في تأسيس هذه الحضارات الاغريقية اللاتينية من أبناء الشرق فلاسفة ومبدعون من دونهم لا يمكن الحديث عن أي ابداع اغريقي لاتيني: «إفلاطون» المصري مؤسس الأفلاطونية الجديدة، وفاراتوستين القيرواني مكتشف محيط الارض، إنطيوخوس العسقلاني، وسينازيوس الفورنائي الليبي، وسابيوس القيصري الفلسطيني، وأسماء لا تحصى. ويمكن الجزم أن ما يقرب من نصف المبدعين والمفكرين المنسوبين الى الحضارة الاغريقية اللاتينية هم ممن ولدوا وعاشوا في مدن شرق المتوسط وبلاد النهرين. بل هناك أسماء عدة لرجال ساهموا بقيادة الامبراطورية الرومانية ومن أشهرهم الامبراطور المعروف بـ (فيليب العربي) والملكة (جوليا) والاثنان من حمص في سوريا.

ضمن هذا السياق يمكن كذلك التعامل مع تاريخ المسيحية. بكل طيبة شاركنا المؤرخين الأوروبيين خطيئتهم باعتبار المسيحية حالة أجنبية أوروبية منذ البدء. ترانا اتفقنا بصورة عجيبة على اعتبار الجاهلية وعبدة الاصنام هي تراث العرب الوحيد قبل الاسلام، كأن مدينة مكة هي مختصر جغرافي أسطوري لجميع بقاع المنطقة العربية ومدنها وشعوبها! لقد تناسينا أن المسيحية ظلت خلال القرون الثلاثة الأولى ديناً خالصاً لأبناء الضفة الشرقية للبحر المتوسط. قبل مجيء الاسلام كانت المسيحية هي الدين الأول لجميع شعوب المنطقة، من بلاد الشام الى اليمن ومصر وشمال افريقيا. إننا نتناسى أن الصناع الأوائل للفقه المسيحي هم أسلافنا: أوغسطين القرطاجي واريوس الليبي ونسطور ويعقوب الشاميين ومئات من الأسماء السامية ـ الحامية التي صنعت الفكر المسيحي. إن مدرسة الاسكندرية ومعها أنطاكيا ونصيبين والرها وحران هي التي صنعت الوحدة بين الفلسفة والفقه المسيحي أي ما يسمى بالعرفانية

(الغنوصية) مثلما صنعت بغداد والبصرة بعد قرون نفس الوحدة بين الاسلام والفلسفة (المعتزلة والأشعرية). في أنطاكيا عرف «المسيحيون» لأول مرة بهذا الأسم. وفي صور تكونت أول جالية مسيحية. ولم تصبح المسيحية ديناً للأوروبيين، إلا بعد ثلاثة قرون. وما تخلى هؤلاء المحتلون (بيزنط وروما) عن أديانهم وتبنوا مسيحية الشرق إلا بعد أن فرضت نفسها كحركة فكرية وسياسية تحررية. لولا استيلاء الأوروبيين على المسيحية ربما كانت نجحت في تحقيق هدفها التوحيدي والتحرري لشعوب المنطقة.

## الانقطاعات العقلية مع الماضي والحاضر

إن المهمة الجبارة الأولى التي تنتظر انجازها من قبل العقل العربي، تتمثل بإعادة كتابة التاريخ العام للمنطقة العربية ضمن رؤية توحيدية وشمولية تحطم الجدران الانفصامية التي خلفتها الأوهام الدينية والقومية، وفرضتها الهيمنة الأوروبية الغربية.

إن إعادة كتابة تاريخنا الحضاري والسياسي والروحي والديني تتضمن كذلك إعادة النظر بالتاريخ الديني والتاريخ اللغوي، حسب السياق التالي:

### أولاً: توحيد الميراث التاريخي

الجانب الأكثر حساسية في هذه القضية يتمثل بذلك التناقض الذي اختلقناه بين التاريخ العربي القومي المشترك بين جميع البلدان العربية إزاء التواريخ الوطنية «القبلاسلامية» الخاصة بكل بلد عربي. لأن الفصل القسري بين التاريخ العربي الاسلامي والتاريخ ما قبلاسلامي ورطنا كذلك في عملية فصل جغرافي قطري بين تواريخ البلدان العربية المتنوعة. بالنسبة لكل مواطن عربي هنالك تاريخ واحد فقط مشترك بين العرب جميعهم هو التاريخ العربي الاسلامي. بالنسبة لغير الشامي فان حضارة الفنيقيين والآراميين تبدو أجنبية وحضارة القرطاجيين تبدو كذلك أجنبية لغير المغاربي. العراقي مثلاً يمكن أن يشعر بالانتماء المشترك مع المغاربي عندما يتحدث عن الفترة العربية الاسلامية، لكن ما إن يتم الحديث عن الحضارة القرطاجية والحضارة البابلية حتى يبدأ الافتراق بين العراقي والمغاربي والانحدار نحو المنافسة الوطنية.

إذن كيف يمكن الجمع بين هذه التواريخ الوطنية المتنوعة؟ كيف يمكننا من ناحية احترام التاريخ الوطني المتميز والخاص بكل بلد عربي، ومن ناحية أخرى وضع كل واحد من هذه التواريخ الخاصة في سياق متكامل ومنسجم رغم التمايزات وحتى التناقضات؟

إن المهمة التي تواجه العرب تتمثل بالعمل على كتابة التاريخ العربي بطريقة تعيد اكتشاف جميع العلاقات التكاملية بين التواريخ الوطنية المختلفة. وهذا يبدأ أولاً باعادة الترابط بين التاريخ العربي الاسلامي والتاريخ ما قبلاسلامي. رد الاعتبار لماضينا وتراثنا الأقدم والأطول زمناً، الممتد جذوره في أعماق وعي الناس وتقاليدهم ومفاهيمهم التي اندمجت في الحضارة العربية الاسلامية.

الأوربي مهما ركز على تاريخه الوطني «القطري» فانه يشعر بالانتماء المشترك لتواريخ جميع الشعوب الأوربية: الاغريقي الروماني الجرماني السلافي. وهذا بالضبط الذي تحتاجه رؤيتنا الى تاريخنا. من حق المصري أن يعتز بتاريخه الفرعوني، لكن هذا لا يتنافى أبداً مع الشعور بالإنتماء المشترك لجميع حضارات المنطقة، كحضارة متكاملة مشتركة بكثير من الخواص الروحية والمادية التي تميزها عن الحضارات الجارة: أوربية وافريقية وآسيوية.

إننا بحاجة الى باحثين في التاريخ والثقافات قادرين على تعقب مراحل التقارب والانصهار بين شعوب وحضارات المنطقة، وصولاً الى المرحلة العربية الكبرى.

يتوجب النظر الى التواريخ الوطنية لكل بلد عربي من خلال هذه الزاوية التطورية المتصاعدة نحو التقارب والتكامل البشري ـ الثقافي.

إن النظرة الشاملة لعموم تاريخ العالم العربي لا تمنع من تقسيم التاريخ المشترك الى تواريخ اقليمية متمايزة مثلما هو الحال عندكتابة التاريخ لعموم منطقة المغرب العربي. على هذا الأساس يمكن كتابة تاريخ الجزيرة العربية، وتاريخ منطقة المشرق العربي (الهلال الخصيب)، وتاريخ منطقة النيل (مصر والسودان)، كل هذا ضمن نظرة شاملة ومتكاملة لعموم التاريخ العربي بجميع مراحله منذ ما قبل الحضارة وحتى الآن.

**ثانياً: توحيد الميراث الديني**

من المعضلات التي يعاني منها العقل الديني العربي هي معضلة الفصل التعسفي بين الميراث الاسلامي والميراث ماقبلاسلامي. لا زالت النظرة الاسلامية عن الجاهلية والكفرة وعبدة الاصنام والتفسخ الأخلاقي والوحشية هي الطاغية في تعاملنا مع تراثنا القديم. لا زال الاسلامي يزايد على العلماني بالتمسك بالتراث، ولكن العلماني ينسى دائماً أن يسأل الاسلامي عن آلاف الأعوام من التراث الحضاري ما قبلاسلامي. إننا تعودنا أن نتعامل مع هذا التراث بطريقة مشابهة لتعامل الغزاة الأوروبيين مع التراث الامريكي. فتاريخ أمريكا يبدأ يوم «اكتشافها» من قبل هؤلاء الغزاة!

إننا حتى تجاوزنا الحقيقة التي يقرها الاسلام نفسه. فالقرآن الكريم خلا تماماً من هذا الفصل التعسفي والتنكر للماضي. فالقرآن رغم رؤيته الإلهية للتاريخ إلا أنه في حقيقته العميقة لا يتنافى مع الرؤية العلمية العلمانية لتاريخ المنطقة العربية. فالقرآن قد تبنى تراث الأسلاف والأديان والحضارات السابقة، وأكبر مثال على هذا أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم اعتبر نفسه وارثاً ومتمماً للأنبياء السابقين، وأن العرب هم أحفاد ابراهيم واسماعيل، وان الاسلام مكمل للأديان الأخرى وعلى الأخص اليهودية والمسيحية. وتم تقديس جميع أنبياء وحكماء الأسلاف بل إن الاسلام قد أضفى القدسية على شخصيات تاريخية غير دينية مثل الاسكندر المقدوني.

إن كان من حق المتدينين والقوميين أن يضفوا القدسية على الحقبة العربية الاسلامية، فليس من الحق والعدل أبداً إنكار آلاف الأعوام من تاريخ وتراث ما قبل الاسلام، وحتى اعتباره أجنبياً ومعادياً لايماننا الديني والقومي. من حق المتدينين أن يؤمنوا بأن هذا التاريخ ما قبلاسلامي غير مقدس، وأن اسلافنا كانوا جاهلين للحقيقة الإلهية، لكن هذا لا يمنع أبداً أن نعترف بالعلاقة بيننا وبين أولئك الأسلاف على أنهم صناع تاريخنا وحضارتنا السالفة.

إن الرؤية التاريخية المنفتحة سوف تكشف لنا عن بعد تاريخي وحضاري للاسلام لا زال مجهولاً بالنسبة لنا. أن الإسلام ما هو إلا وليد طبيعي لتطور التقارب الروحي والثقافي والديني لشعوب المنطقة. التقارب العرقي والديني الذي كان في تصاعد ونمو تدريجي منذ فجر التاريخ.

مثلما اغتصبت الصهيونية منا اليهودية وحورتها لأهدافها الاستعمارية الغربية، كذلك اغتصبت أوربا منا المسيحية وكتبت تاريخها بمعزل عن تاريخنا. إن النظرة الموضوعية للتاريخ ستكشف لنا أن اليهودية هي نتاج طبيعي لتلاقي حضارات شعوب المنطقة: شامية ورافدية ومصرية. اليهودية مرحلة ابتدائية في مجرى تكون روح مشتركة بين هذه الشعوب. تاريخ اليهودية الأسطوري يكشف بشكل واضح عن هذا التلاقي والتمثل: «العبرانيون خرجوا من اور في العراق، وابراهيم تزوج بهاجر المصرية لتكون ام اسماعيل والعرب، وعاش اليهود لاجئين في مصر وصار نبيهم موسى الضابط المصري، ثم كونوا دولتهم في فلسطين وكتبوا تلمودهم في بابل ...». تاريخ اليهودية وكتبهم المقدسة مثال بيّن على الأصول الأولية لعملية التقارب الفكري والروحي بين شعوب المنطقة.

لكن اليهودية، رغم أنها كانت نتاج مشترك لجميع حضارات المنطقة إلا أنها ظلت تجربة أولية وقاصرة بسبب انطوائها القبائلي العبراني. لهذا فان المسيحية قد شكلت مرحلة متقدمة اكثر تطوراً وشمولية من سابقتها اليهودية. لم يعد الله رب للعبرانيين وحدهم بل جعله المسيح رب جميع البشر. حسب الانجيل فإن المسيح قد تمرد وثار ضد طرفين، هما اليهود والرومان. المسيحية أتت ضد العصبية القبلية العبرانية وضد الهيمنة الأجنبية الرومانية.

ضمن هذا السياق يمكن اعتبار الاسلام هو المرحلة الناضجة والمتقدمة التي نجحت في الوصول الى الهدف التوحيدي الذي شقت دربه شعوب المنطقة وتجلى في الأديان السالفة. إن تاريخ الاديان الثلاثة يكشف عن عملية نمو متصاعد نحو الأكمل والأشمل: الأديان المشرقية (العراقية الشامية) والفرعونية صنعت الدين وطورت الأفكار الروحية ... ثم أتت اليهودية التي جمعت بين الثقافتين المشرقية والمصرية وساهمت في توحيد فكرة الإله .. ثم أتت المسيحية التي وحدت الله والبشر .. أما الإسلام فقد وحد الله والبشر والأوطان وصنع حضارة موحدة للدين والثقافة واللغة، أي أنه أكمل تكوين «الأمة».

إن اعتقادنا واحترامنا للاسلام وتاريخه وأصوله هو الدافع لأن ندرس ونتعرف على أديان ومعتقدات ماضينا التي يعترف بها الاسلام ويُعرِّف عليها. لتكون جزءاً من تراثنا ومناهجنا الدراسية وجميع الأديان والميراثات الروحية لأسلافنا: السامية والمصرية واليهودية والمسيحية والصابئية والمانوية واليزيدية وجميع الأديان والمعتقدات الميتة والحية التي صنعتها حضارتنا في بلاد العراق ومصر واليمن والشام وشمال افريقيا. إن أعادة ربط التراث العربي الاسلامي بالتراث الروحي لحضارتنا السالفة سوف يخدم العقل العربي في ناحيتين:

أولهما، أنه يعيد إلينا جزءاً كبيراً من ذلك التراث الذي صنعه أسلافنا خلال آلاف السنين وسلبته منا أوربا وبكل صلافة اعتبرته المصدر الاول لتراثها الفكري. إنه التراث المسيحي الذي سلبته منا أوربا منذ احتلال الرومان والاغريق للضفة الشرقية للبحر المتوسط، رغم ان هذا التراث نشأ ونما خلال قرون في مدن الشرق، الاسكندرية وقرطاجة وإنطاكية ونصيبين وحران وغيرها. ولقد نجحت أوربا بجعله جزءاً أساسياً من تراثها رغم أن جميع القديسين والفقهاء والفلاسفة الذين صنعوا هذا التراث هم من أبناء منطقتنا. ونفس الحالة بالنسبة للتراث اليهودي الذي نجحت أوربا كذلك بسلبه في نهايات القرن الفائت من خلال نشوء الحركة الصهيونية كأداة سياسية فكرية لديمومة الهيمنة الغربية. رغم أن هذا التراث نشأ منذ البداية في المنطقة، بل إن جزءاً مهماً من هذا التراث قد كتب باللغة العربية أثناء الحقبة العربية الاسلامية وخصوصاً

في الأندلس. وصل الأمر بالخطاب الاوروبي الحالي أن يطلق على الفكر الأوربي الحالي تسمية (الفكر اليهودي ـ المسيحي).

أما الناحية الثانية التي ستخدم الفكر الديني العربي، فتتمثل برد الاعتبار لتاريخ وأصول الفكر الاسلامي بالذات. أي نبذ ذلك الوهم السائد بأن الاسلام نشأ أولاً من تراث بدوي جاهلي في مكة والجزيرة وأن باقي أصوله هي أجنبية: فارسية وهندية واغريقية. إن رد الاعتبار للتراث الديني قبلاسلامي سوف يكشف لنا ان الاسلام ما هو إلا خاصة إبداعية لجميع الميراثات الدينية والروحية التي صنعها أبناء المنطقة العربية: العرفانية (الغنوصية) والتصوفية المانوية والمسيحية واليهودية والآداب السريانية والفنون المصرية والفلك البابلي والعلوم الفينيقية والقرطاجية، وغيرها من المصادر المعرفية التي ضختها شعوب المنطقة في الحضارة العربية الاسلامية.

إن اعادة كتابة تراث الاسلام وتاريخ العالم العربي يعني اعادة كتابة تاريخ الحضارة البشرية وخصوصاً تاريخ شعوب البحر المتوسط. وان انعتاقنا من الرؤية التقطيعية والانفصامية لتاريخنا هو انعتاق من هيمنة الرؤية التمركزية الأوروبية.

### ثالثاً: توحيد الميراث اللغوي

### العربية وأصولها السامية ـ الحامية

مكتشفات العصر الحديث التاريخية أثبتت بصورة جلية على أن اللغة العربية هي جزء من تلك العائلة اللغوية الكبرى المسماة «العائلة السامية ـ الحامية[*]». وعائلة هذه اللغات تمثل تراث الشعوب السالفة التي أورثتنا الانسان والثقافة واللغة. لماذا اذن هذا الاصرار على التعامل مع هذه اللغات كأي لغات أجنبية وميتة؟ لماذا هذا التردد في الاعتراف والكشف عن ديمومة هذه اللغات في داخل اللغة العربية ولهجات وثقافات شعوب المنطقة؟

إن اعادة الربط بين اللغة العربية ولغات الأسلاف السامية ـ الحامية عامل أساسي لخلق رؤية منسجمة ومتوازنة لتاريخنا الشامل، ضمن سياقه التطوري التوحيدي المحتم بظروف الجغرافيا والمناخ وتجانس الأعراق والثقافات. لو نظرنا الى تاريخنا اللغوي لوجدنا أن هناك

* نكرر، أنه بمفهومنا، العائلة اللغوية، ليست لها أية معاني (قومية عرقية) بل تشابه لغوي فقط.

مراحل تدرجية بدأت منذ أولى الحضارات لتصل الى قمتها في القرن السابع بهيمنة اللغة والأبجدية العربية. إن أولى المراحل البدائية تتمثل باختراع الكتابة الصورية: الهيروغليفية في بلاد النيل، والمسمارية في بلاد النهرين. مع الزمن توطد هذا التقارب بأول وأهم اختراع في تاريخ البشرية، إنه النظام الرمزي، نظام الأبجدية الفينيقية. ويعتبر هذا الاختراع حصيلة تعاون وتمازج معرفي طويل بين الشعوب السامية والحامية. إذ ليس صدفة أن أول ظهور لهذه الأبجدية كان في صحراء سيناء، حيث تلتقي هناك جميع قبائل وحضارات المنطقة. بعد ذلك شاعت اللغة الآرامية (السريانية) مع شيوع المسيحية كلغة أساسية وثقافية في جميع أنحاء المنطقة، ولتكسر الهيمنة السياسية الثقافية التي فرضتها اللغات الاغريقية واللاتينية والفارسية. مع بزوغ الاسلام في القرن السابع وصل التقارب الى قمته في الاتفاق على اللغة والأبجدية العربية التي لخصت حصيلة تطور جميع اللغات والثقافات السابقة، يمنية وبابلية وفنيقية وسريانية وقبطية وباقي لغات المنطقة.

إن الفرد الاوربي مهما كانت لغته، فإنه مجبر على دراسة اللغات والآداب الاغريقية اللاتينية كمدخل أساسي لدراسة لغته الوطنية، فرنسية أو إيطالية أو إنكليزية وغيرها. إن سر قوة الثقافة الأوروبية يكمن في قدرتها على إعادة التواصل بين ثقافات الحقب التاريخية المختلفة التي عاشتها أوربا. لكننا نحن العرب تجاهلنا هذه المهمة الأساسية وأبقينا ثقافتنا العربية منفصلة عن أصولها التاريخية التي صنعتها شعوبنا خلال آلاف السنين من الحضارات الكبرى التي قامت في بلاد النهرين والشام ومصر واليمن وشمال افريقيا.

يبدو أن جذور الانفصام تعود الى فترة قيام الدولة العربية الاسلامية في القرن السابع، وبسبب ظروف الصراع الديني والمنافسات القومية، كذلك الاختلاف الظاهري للغة العربية عن اللغات السامية ـ الحامية السائدة، ثم انتشار هذه اللغة وتحولها الى لغة الحضارة والدين واللغة الأم لأغلبية السكان. لكن هذه الظروف أدت الى اندثار هذه الثقافات الماقبلاسلامية الناطقة بلغات وأبجديات صارت منسية من قبل الأجيال المستعربة. ثم إن خشية العرب المسلمين من التشبه بلغة أسلافهم (غير المسلمين)، قد خلق لدى هذه الشعوب المستعربة حالة تناسٍ واعية، وغير واعية، وصلت الى حد الشعور بالأجنبية المطلقة عن أولئك الأسلاف. وساد اعتقاد خاطىء بأن الثقافة واللغة العربية منقطعة تماماً عن الثقافات واللغات السابقة واعتبارها نتاج «مطلق» للقبائل العربية التي نشرت الاسلام واللغة العربية!

إن دراسة العائلة اللغوية السامية ـ الحامية يجب أن يكون موضوعاً أساسياً وإجبارياً في مناهج تدريس اللغة والأدب والثقافة العربية. ومن الخطأ الإبقاء على التصور القائل بأن دراسة تلك الثقافات سيكون على حساب اللغة العربية، بل الحقيقة هي العكس تماماً. لأن دراسة السريانية والقبطية والعبرية والسومرية والبربرية، وإظهار دورها في إغناء وتطوير اللغة العربية سوف يعيد الاعتبار الى اللغة العربية نفسها، ويظهر حقيقتها على أنها خلاصة وذروة لجميع تلك الثقافات واللغات. بالاضافة الى الفائدة التاريخية التي سيجنيها العقل العربي من أجل تكوين هوية ثقافية وسياسية عربية (شرقمتوسطية) تستمد عنفوانها وشرعيتها من أصول الثقافات الأولى.

لننظر مثلاً الى القواميس العربية، حتى الآن لا زالت جاهلة ومنقطعة تماماً عن أصولها اللغوية السابقة. وأبرز مظاهر هذا التقصير تتجلى في تفسير معاني الأسماء. نشيد هنا بتجربة رائدة وجديدة تستحق التقدير وهي (معجم أسماء العرب ـ موسوعة السلطان قابوس)، رغم انه يعاني من نقص كبير، يتمثل باتفاقه مع القواميس الاوربية باعتبار الاسماء المسيحية بأنها(عبرية)، وهذا غير صحيح تاريخيا، فهي اسماء استعملتها الشعوب الناطقة بالسامية ومعهم العبرانيون.

في القواميس السائدة، مثلاً عندما تبحث عن معنى اسم «عيسى» فإن جميعها تختصر الجواب بعبارة واحدة: اسم عبراني أو آرامي. ويعني المنقذ والمخلص! لكن أي مطلع على اللغات السامية سوف يكتشف أن معنى هذا الاسم موجود في صلب اللغة العربية: عيسى في العربية يمكن أن يعني أيضاً المخلص أو المُنجد. هناك كلمة عسى، وتفيد بمعنى التمني، وهناك كلمة عسس، وهم حراس النجدة الليلية، وهناك كلمة فيها إبدال لحرف السين الى شين، وهي العيش، وتفيد بمعنى الحياة والانقاذ، ومنها اسم «عياش».

على هذا المنوال سوف نكتشف ما لا يحصى من أسماء الأشخاص والمدن والقرى. مثلاً، من أسماء المسيحيين اسم «توما» وهو أيضاً له معنى بالعربي لأن معناه في الآرامي والعبري هو «توأم». خذ أيضاً اسم قديس آخر «متى»، وحسب الأصل الآرامي يعني المانح والواهب، ولفظه العربي هو «مُعطي» ! أما اسم «مريم»، فيبدو واضحاً بالعربية عندما نعرف أن في الأصل الآرامي يتكون من «مار» ويعني القديس أي «الإمرؤ والأمرأة» ومنه الأمر، ثم «يم» وهو البحر والماء. إذن فإن اسم مريم يعني بكل بساطة في العربية مثلما في الآرامية «أميرة

اليم» ، «قديسة الخصب» وهناك اسم آخر يكشف لنا عن التمازج العميق بين العربية وأسلافها السامية وهو اسم «إيليا» ويعني المقدس والعالي في جميع اللغات السامية ، ورديفهُ العربي هو «علي ، علاء» ومنه اشتق اسم «الله» وهو لفظ سرياني وليس عربي ، لأن حرف اللام بهذه الطريقة المفخمة لا يوجد في أية كلمة عربية أخرى غير «الله». وقد يكون اللفظ الأقرب الى العربية هو «العالي» ومنه «إله». إذن جميع الأسماء التي تحتوي على «أيل» لها معنى مرادف في العربية : «جبرائيل» يعني «إيل الجبار» أي «علي الجبار» وهو «الله الجبار» و «ميخائيل» هو «محيائيل» ويعني «إيل الذي يحيي» و«اسرائيل» هو «إصراعيل» «إيل الذي يُصرع» و «دانييل» هو «إيل الذي يدين ويحكم»(*). ومدينة «بابل» تعني «باب أيل» «باب الله».

الدكتور يوسف حوراني يفترض أن «أل» التعريف في العربية قد أتت من اللغة الأكدية. إذ يعتقد هذا الباحث أن أهل النهرين تعودوا لفظ اسم «إيل» قبل أي اسم من أجل حفظه من الشر. ومع الزمن صارت «إيل» أداة ضرورية تسبق الاسم ، وبالتالي صارت هي أداة التعريف عند معظم الساميين ومنهم العرب. بينما اللغة الآرامية والعبرية اختارتا كلمات «ها» للتعريف ، ورديفها العربي أيضاً «ها» التي تستعمل للضمائر والإشارة : «ها ، هو ، هي ، هذا ، هذه ، .. كتاب.. الخ» ومنه اشتق اسم الحياة والهواء ، أي ضمير الوجود. أما الأكديون وكذلك الكنعانيون فكانوا يستعملون التنوين كأداة تعريف ، فتقول «لبنان» وهي «لبناً» أي الأبيض ، وهو جبل لبنان. ولا زالت العربية تحتفظ بهذا الأسلوب التنويني الذي صار مختصاً بالكلمات غير المعرُّفة (البنية الذهنية الحضارية ـ يوسف حوراني ـ ص172ـ 178).

والأكثر طرافة في الموضوع هو تحول الأسماء السامية العربية الى أسماء أوروبية ، واستخدامها من قبل المسيحيين العرب على أنها أوروبية ، منها مثلاً اسم «حنا» أو «يوحنا» وأصله السامي العربي مشتق من «حنان» ، أما تنوعات لفظه الأوروبي فلا تحصى : في الفرنسي «جان» للمذكر و «آن» للمؤنث ، وفي الإيطالي «جيوفاني» ، وفي الاسباني «خوان» ، وفي الانكليزي «جون» ، وفي الألماني «هان» ، وفي الروسي «إيفان» ، وهكذا تعود علينا بضاعتنا بحلة جديدة تماماً.

أما اللغات الحامية (المصرية والبربرية) وهي الأبعد جغرافياً وتاريخياً عن العربية ، فإنها تركت آثارها أيضاً على العربية بصورة مباشرة وغير مباشرة وخصوصاً في القسم الافريقي من

* لمن يرغب الاطلاع على معاني الأسماء (المسيحية) يمكنه مراجعة أي قاموس للأسماء بأحدى اللغات الأوروبية المعروفة . للأسف لايوجد أي قاموس عربي يعالج هذا الموضوع .

العالم العربي، في هذا المجال نستشهد بما يذكره الباحث المصري سليمان الحكيم، عن الأصول السامية ـ العربية لمعظم أسماء الآلهة المصرية، وكذلك الأسماء الشائعة حالياً للمدن والعوائل المصرية: الشناوي، شنودة، الصاوي، الحفناوي، البسطاوي، الصفطاوي، الهواري، الأشموني، الأسنزاوي، السخاوي، مريت، سمير، سوزي، شيري .. الخ. ومثال على هذا نذكر اسم «أشموني» ورديفه العربي «ثمانية»، واسم «سمير» ورديفه العربي «سمير» وهو المحبوب والمسامر، واسم «سخاوي» ويعني السخي، والسخاء هي الأرض اللينة في العربي والمصري. واسم «مريت» يعني في المصري «الماء» أو «المروي» كما في العربي. واسم «سوزي أو سوزان» هو السوسن في العربي و «الهكسوس» هم «ساسة الخيل» لأن «هق» في العرب تعني الخيل، ولأن «الهكسوس» هم أول من أدخل الخيل الى مصر من بلاد الشام. (سليمان الحكيم ـ الأصول المشتركة بين اللغتين العربية والفرعونية ـ الحياة 31 أيار 1992) . وفي هذا السياق يمكن التعامل مع اللغات البربرية في شمال افريقيا حيث نجد التشابه في الأصول بين العربية والبربرية. وعلى هذا الأساس اتفق علماء اللغة والتاريخ على إطلاق تسمية «العائلة اللغوية السامية ـ الحامية».

تبقى هذه الأمثلة، أمثلة لا أكثر، بل إن غايتها هي التوكيد على الأهمية الكبرى لاعادة النظر في مناهج تدريس اللغة والأدب العربي التي تتجاهل تماماً الأصول العريقة للغات وآداب الحضارات الأولى التي من دونها ما كان للغة وآداب العرب أن تنبثق وتتطور وتهيمن أبداً.

## ترجمة تراثنا العربي الى العربية!؟

لا .. ليس خطأ في العنوان لتوضيح المسألة، يمكن ايراد أمثلة لشعوب قد عاشت من قبلنا نفس الاشكالية وتخطتها بحل سهل جداً لكنه يتطلب الكثير من الجرأة والشجاعة. منذ قرن واليوناني لا يقرأ أرسطو وأفلاطون والالياذة وجميع تراثه الاغريقي، إلا وهو مترجم من الاغريقية القديمة الى الاغريقية الحديثة. والايطالي منذ أربعة قرون يفعل ذلك مع تراثه المكتوب باللاتينية. والفرنسي ترجم أيضاً تراثه المكتوب بفرنسية القرن العاشر والهندي والصيني فعلا نفس الشيء، وفعلت هذا عدة شعوب في الشرق والغرب عندما عانت من تطور لغتها الأصلية وصعوبة التعامل مع نصوص لغة الأسلاف.

صحيح أن الفرق بين العربية الحديثة والعربية القديمة ليس بالكبير بحيث يسمح لنا بالحديث عن لغتين مختلفتين، لأنه لم يؤد الى اختلاف قواعد الاعراب وبنية اللغة المتعارف عليها، لكنه اختلاف كبير في الأسلوب وقواعد البلاغة. بالاضافة الى التغير الشاسع في معاني الكلمات والغاء جزء كبير من مفردات القاموس واستحداث ما لا يحصى من الأسماء والأفعال والمصطلحات والتعابير، مع اشكال جديدة من الجمل بسبب حرية التلاعب بمكان الفاعل والفعل والمفعول به في اللغة المعاصرة.

لو افترضنا ان الجاحظ أو ابن عربي أو أياً من مثقفي العصور السابقة، وجد يوماً جريدة عربية صادرة في أيامنا هذه. يا ترى هل سيتمكن من فهم واستيعاب مقالاتها؟ قد يفهم المعنى العام لكنه يقيناً سوف يعاني من صعوبة وملل في التعامل مع تلك النصوص المختلفة عن لغة عصره. سوف يجهد ويلجأ كثيراً الى قواميس المنجد والوافي وأخرى متخصصة في الصحافة والاعلام والعلوم الحديثة.. كل هذا من أجل استيعاب نص صحافي يفهمه أي طالب عربي معاصر متوسط الثقافة.

وهذه هي ذات الاشكالية التي نعيشها نحن أبناء اللغة العربية الحديثة. يمكنني إيراد مثال تجربتي الشخصية. فأنا ثقافتي عربية، والعربية هي لغتي الأم، وتعلمت القرآن في المدرسة والعائلة. لكني مع كل هذا ما تمكنت حتى الآن من قراءة نصوص التراث والتمتع بانسيابيتها وسهولتها.. بل اني فوجئت بفهمي الأفضل لنصوص تراثية عربية بعد قراءتها مترجمة الى اللغة الفرنسية، رغم أني لم أدرس هذه اللغة إلا منذ سنوات!

كنت في البدء أعتقد أن الاشكالية شخصية وفردية، مع الزمن ومن خلال اطلاعي المباشر على حال المثقفين العرب وعلاقتهم مع نصوص التراث، اكتشفت أن الغالبية العظمى يعانون من نفس الصعوبة. والطريف أن الجميع يساهمون بشكل أو آخر بعدم التطرق الى هذه الحقيقة المُرّة، بل وتجنبها من خلال حفظ الآيات القرآنية وأبيات من المعلقات والمتنبي والمعري ثم ترديد الأسماء التاريخية المعروفة مثل فلان وابن فلان وأبو فلان؛ دون التمكن من إقامة علاقة طبيعية مع هذه النصوص.

الناطق بالعربية، إن كان طالباً أو عاملاً أو مثقفاً، لا يستطيع أن يقرأ بنفسه أبا حنيفة أو الشافعي أو جعفر الصادق وباقي رموز الثقافة العربية والاسلامية، بل يحتاج دائماً الى تلك النخبة من المثقفين والمتدينين ليكونوا وسطاء بينه وبين ميراث إيمانه ومعتقداته. ولو كانت هذه النصوص مكتوبة بلغة حديثة ومفهومة لما احتاج القارىء لهؤلاء الفقهاء، أو على الأقل لكان امتلك حرية وقدرة أكثر في محاورة واغناء وتطوير ما يطرحه هؤلاء الوسطاء، والتخلص من الايمان الضيق والحرفي بما يقولونه.

وهذا الواقع الاشكالي ساعد على خلق هوة عميقة بين المثقف العربي والثقافة الموروثة، وبالتالي فرض حالة من الانفصام في العقل العربي برمته، وعمّق الهوة التاريخية بين ما يسمى بالثقافة المعاصرة والثقافة التراثية، وخير تمثيل لهذه الحالة هو الفصل العقلي الثقافي والسياسي ما بين المثقف العصري ذي اللغة المعاصرة، والمثقف التراثي المتضلع بفك رموز لغة الأسلاف.

أمر طبيعي وواقعي أن يكون هناك تعارض بين اتجاهين حداثي تغييري وسلفي محافظ، فهذا أمر تفرضه سنة الحياة في كل أمة وعصر. لكن الحاصل لدينا نحن الناطقين بالعربية، ان الشقة بين هذين الاتجاهين متطرفة جداً بعمقها وشدتها وكأنها بين ثقافتين لشعبين متناحرين ومنفصلين زماناً ومكاناً.

المثقف العصري لم يتعرف على نصوص التراث الدينية والأدبية والعلمية إلا بصورة محدودة جداً ومتقطعة وغالباً ما تكون من خلال المدرسة والمقتطفات التراثية المنشورة في الصحافة. بينما نجد من الطبيعي جداً أن معظمنا قد قرأ التراث الأدبي الأوروبي واليوناني والأمريكي والصيني ربما وحتى الهندي، وكل هذا من خلال الكتب المترجمة، لأننا نستوعب ونتمتع بكتاب لفيلسوف غربي مترجم الى العربية الحديثة، لكننا نواجه صعوبة في الانسجام مع كتاب تراثي مثل رحلة ابن بطوطة أو مقامات الهمذاني، رغم جفاف لغة الفلسفة وخفة وطرافة وغنى حكايات ابن بطوطة والهمذاني!

وعلى الطرف الأقصى الآخر، نجد مثقفنا السلفي المتضلع بلغة التراث والفقه والدين وعلم الكلام، في معظم الأحيان، يعيش حالة انقطاع شبه تام عن الثقافة المعاصرة. بسبب انقطاعه عن اللغة الحاضرة وانكبابه على نصوص مكتوبة بلغة تختلف عن لغة عصره. وغالباً ما يشعر في أعماقه، هذا المتفقه، بأجنبية النصوص الحديثة وتبعيتها للغة «مشوهة» وبعيدة ومنفصلة عن لغة التراث المقدسة!

ان الانقطاع اللغوي عن التراث أدى الى توتر كبير في علاقة العربي مع ميراثه العقلي وماضيه الروحي والديني، ويبدو الأمر وكأنه قد جرت عملية طلاق غير معلنة بين اتجاهي العقل العربي: المثقف المعاصر له الحاضر، والمثقف التراثي له الماضي، وبموجب هذه الاتفاقية قد صار التاريخ بأجمعه والتراث الديني وما يتعلق بالتقاليد والطقوس الروحية حكراً خاصاً للمتضلعين بفقه اللغة والدين. والنتيجة، فقدت الثقافة المعاصرة أصالتها وعمقها الروحي التاريخي، وفقدت الثقافة الدينية التراثية قدرتها على التجدد والاجتهاد واكتساب علوم العصر.

صحيح أن هنالك نصوصاً تراثية مفهومة جداً، مثل نص ألف ليلة وليلة المكتوب بلغة مبسطة ومنفتحة أقرب الى اللغة المعاصرة. لكن عموماً أن غالبية النصوص التراثية تتراوح مستوياتها بين الغموض المطلق والغرابة العصية على الفهم. يمكننا ايراد مثال نموذجي للمستوى الشائع، وهو نص معروف لـ (ابن حزم الأندلسي) في «طوق الحمامة» (ص97).

باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها :

«واعلم أعزَّك الله أن للحُب حكماً على النفوس ماضياً، وسلطاناً، وأمراً لا يخالف، وحدّاً لا يعصى، وملكاً لا يتعدّى، وطاعة لا تُصرف، ونفاذاً لا يرد، وأنه ينقض المرر، ويَحُلّ المُبرم، ويُحلّل الجامد، ويخل الثابت، ويحلّ الشغاف، يُحلّ الممنوع، ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون في تمييزهم، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم، ولا اختلال بحُسن اختيارهم، ولا تقصير في حَدْسهم، قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بُمستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال، فصارت هجيراهم، وعُرضة لأهوائهم، ومنتهى استحسانهم ثم مضى أولئك إمَّا بسلوّ أو بَيْن. أو هجر أو بعض عوارض الحب، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم».

أغلبنا يتفق بوجود صعوبة لفهم واستيعاب هذا النص. بالاضافة الى فقدان الانسيابية المفترضة. علماً أن هذا ليس بنص فلسفي ولا صوفي انما وصفي، بين السرد القصصي والتحليل الواقعي، ولا يحتوي على مفردات مجازية أو شعرية.

هنا أسجل محاولة لترجمة هذا النص الى العربية المعاصرة. أؤكد أنها محاولة ليس أكثر، لأني لست متخصصاً، ولم أبذل جهداً كبيراً في استخدام القواميس والبحث والتقصي. إني أطرح المحاولة كما هي وبكل تلقائية وصدق، لاعطاء مثال على اشكالية القراءة والترجمة. لقد تركت بعض العبارات بين هلالين، وهي التي لم أفهمها معنى أو بلاغة.

«باب من أحب صفة فلا يستحسن ما يخالفها. واعلم، أعزك الله، ان للحب تأثيراً كبيراً على النفوس، وسلطاناً جباراً، وهيمنة لا تخالف وقانوناً لا يعصى، وسيطرة غير محدودة، وخضوعاً غير منته، ونفوذاً لا يرتد، والحب كذلك، (ينقض المرر؟)، ويفتح المعقود، ويذوب الجامد، ويخلل الثابت، (ويحل الشغاف؟)، ويسمح بالممنوع. ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُشك في نباهتهم، ولا يخاف عليهم من ضعف معرفتهم، ولا اختلال بحسن اختيارهم، ولا تقصير في حدسهم، أقول ان هؤلاء قد وصفوا أحباباً لهم بطريقة غير مستحسنة عند الناس ولا تتفق مع الجمال، (فصارت هجيراهم، وعرضة لأهوائهم، ومنتهى احسانهم؟)، ثم رحل اولئك إما عن نسيان أو موت أو هجر أو بعض حوادث الحب..».

❖ ❖ ❖

الناظر للتاريخ الثقافي للعالم العربي يجد أننا نعيش عدة أشكال أو مستويات من القطيعة الثقافية الروحية، منها القطيعة التاريخية مع التراث السابق للاسلام، وكذلك القطيعة مع الواقع التحديثي السريع والمفروض من الخارج. أما القطيعة التي تعنينا في هذا الموضوع هي القطيعة مع التراث العربي الاسلامي، بسبب توقف التواصل الحضاري المعرفي والمادي خلال قرون ما يسمى بالفترة المظلمة، حيث القطيعة الروحية والمادية بين الانسان الناطق بالعربية وإرثه المادي والروحي، وهذا الانقطاع هو الأدنى مسافة والأقوى تأثيراً والأعمق جراحاً بسبب قربه وحضوره الثقافي والديني واليومي الواعي. حالة الفصل هذه ساعدت على خلق الغرابة والغموض حول ذلك التراث وتبرير قدسيته واضفاء اللاهوتية على من يتعامل معه.

يمكن الاعتقاد مثلاً، ان هذه الاشكالية تأخذ طابعاً مختلفاً لدى شعوب قريبة لنا مثل الأتراك والايرانيين والباكستانيين. لهؤلاء علاقة مع النص الاسلامي مختلفة عنا لأنهم مجبرون على الأطلاع على التراث بلغاتهم الوطنية المعتادة، وخصوصاً بعد خطوة الأتراك أوائل القرن، في ترجمة النصوص الدينية العربية وما أعقبها من تطورات ثقافية وسياسية. ولعل ما يميز اشكالية هذه الشعوب هو الاحساس بالأسف وتوتر الهوية القومية بسبب اضطرارهم

للاعتماد على تراث ديني مكتوب بلغة اسمها العربية وهي مختلفة تماماً عن لغات شعوبهم. وهذه الاشكالية طالما عبر عنها المثقفون القوميون في تركيا وإيران.

المختصون بالتراث يتحدثون عن وجود ثلاثة ملايين مخطوط عربي واسلامي مبعثرة في أنحاء العالم، ولم يطبع منها حتى الآن غير 5٪. وفي هذه الملايين من المخطوطات يكمن ماضينا وتاريخنا ودیننا وتراثنا العربي الاسلامي بأكمله.

يخطىء من يتصور أن الزمن كفيل بحل مشكلة علاقتنا مع لغة التراث، لأن التطور الثقافي واللغوي لا يؤدي كما يعتقد هؤلاء الى تقليل الهوة بين لغة التراث ولغة العصر، العكس هو الحاصل، فالمشكلة تتعقد أكثر فأكثر بمرور الزمن، لأن المسافة تنأى مع الأعوام بين هاتين اللغتين، لغة التراث باقية كما هي محفوظة في الكتب، بينما لغة العصر تتطور مع الحياة وتبتعد أكثر فأكثر عن لغة تلك العصور.

يتوجب أيضاً التأكيد أن الدعوة الى ترجمة التراث ليست ضد التراث أبداً، بل العكس، انها دعوة لجعل النصوص التراثية بمتناول الأغلبية الساحقة من القارئين والناطقين بالعربية. وهذا أمر سيجعل من التراث ثقافة شائعة وسهلة القراءة والاطلاع، وبالتالي طمر الهوة اللغوية والروحية بين التراث وابناء العصر. ثم يجب التذكير ان ترجمة النصوص التراثية الى العربية الحديثة لن يضاهي بجرأته ترجمة هذه النصوص الى اللغات الفارسية والتركية والأوردية وغيرها من لغات الشعوب الاسلامية.

ان دعوتنا هذه محاولة لاعادة الشباب الى اللغة العربية ونصوص التراث. اننا أشبه بمن يبتغي اخراج كنوز وثياب فاخرة من صناديق عتيقة، ويلبسها لحسناء فاتنة وفقيرة أضاع منها الزمان ميراث أسلافها الأثرياء.